البيمارستانات
وأصول التعليم الطبي فيها

د. سامي حمارنة (*)

إن من أهم الأحداث وأعظمها شأناً في تاريخ نشوء وتطور المهن الصحية عامة، وفي العصر العربي الاسلامي في هذا المجال خاصة، هو تحقيق تأسيس واكتمال ونجاح البيمارستانات (والمفرد بيمارستان من الفارسية، بيمار ـ استان ومعناها بيت المرضى أو دار الشفاء)[1]، على أسس علمية سليمة ومتقدمة وضمن نطاق تطور تنظيمي مهني حضاري، ثبتت على قواعد إنسانية إيجابية راسخة البنيان. فكانت هذه الهيئات الخيرية فتحاً جديداً مباركاً ورائعاً، واكب النهضة الطبية عالمياً في شتى تخصصاتها.

لقد كانت نشأتها وشهرتها قفزة مركزة صادقة الأهداف، تصبو الى السير المضطرد الى الأمام، يحدو بها الأمل للانتشار والامتداد، حتى طبقت شهرتها الآفاق في شرقي العالم الاسلامي وغربيّه، ومن مدينة الى أخرى، مع الاستمرارية الواضحة المعالم المنسقة الجهود، رائدها عهود موثقة بايمان مغلظة وأوقاف سخية لوجه الله تعالى احتساباً، براً واحساناً، لعمل الخير والمعروف، غايتها القصوى رفع المستوى الصحي عالياً، مع الاهتمام بشفاء المرضى ورعاية المتألمين روحاً وجسداً، ودفع الأسقام والأوبئة عنهم، والوقاية، وحفظ الصحة عامة وسلامة البيئة، ونجاح المعالجات المجربة وتطبيقها نظرياً وعملياً، تماشياً مع أساليب المناهج في التعليم الطبي، والممارسة المهنية والأكاديمية الجادة والناجحة. وهكذا قامت معها أنظمة رسمية واعية وخيرية واضحة المعالم ثابتة المراسيم، فصارت الرائدة لدور الشفاء في العصر المتمدن الحاضر. وهذه المؤسسات نشطت وقدمت أفضل الخدمات الصحية المتكاملة لمئات السنين، بعضها باق أثره حتى زمننا هذا[2].

وان البيمارستانات الاسلامية في أغلب الحالات، شيدت في أجمل الأماكن وأكثرها ملاءمة لصحة البيئة، في أشهر المدن وأعرقها حضارة وعمراناً، وتحتل المباني الفسيحة المستوفية الشروط الصحية، رفيعة البنيان واسعة القاعات، متقنة الزخارف، غنية النقوش، تضم أحصن القلاع الشاهقة، كما وان منها ما كانت محمولة متنقلة من مكان الى مكان، لإيصال الخدمة الى المواطنين على اختلاف مشاربهم وطبقاتهم وأحوالهم، في السلم أو في زمن الحرب، وسط المعارك والأخطار وبين الأهل الساكنين الآمنين، أو وقت الحج وزيارة البيت الحرام[3].

(*) جامعه اربد ـ الأردن.

في هذه العجالة، في ورقة عمل حول تاريخ وفلسفة البيمارستانات الاسلامية، وأساليب وأنظمة وممارسة التعليم الطبي فيها، لا بد من الاشارة بادىء ذي بدء، بأن هذه الهيئات تحولت منذ نشأتها لتصبح ظاهرة حضارية رائعة، ضمن الحركة المهنية العلمية الانسانية، وما حققته في الغالب من خدمات ومآثر جلّى. وهي كنظيرها من المؤسسات والمرافق والدواوين والأنظمة الاسلامية المختلفة، قامت وترعرعت تحدوها بواعث ومنطلقات شخصية وحوافز فردية، غايتها عمل الخير للجميع، ومدّ يد العون لاسعاف المرضى والمحتاجين، وإسداء المعروف لأبناء الأمّة جمعاء بدون تمييز أو تفريق بين فئة وأخرى. على ان هذه المُنشآت كانت تنشط أو تركد، ترتفع أو تخمد، أو أنها تتسامى الى أعلى الرتب، في خدمة الناس في المهن الصحية من قبل المحسنين وأهل الفضل والدين والعلم الشرفاء، بإيحاء مُثلٍ اسلامية رفيعة وبقيادة حكيمة رشيدة، قياماً بواجب إنساني وديني وأخلاقي في أعلى المستويات، أو أنها تنحط بأهدافها، ويخمد أوارها واشراقها، فتسقط الى الحضيض متنكرة للمقاييس العالية التي تبنتها، فضاعت أبهة جلالها نتيجة الاهمال والحرمان والكوارث، أو فقدان المبادىء العالية الشريفة والمثل الحميدة، فلعبت أيدي الاساءة عابثة بالودائع ـ الرهائن والأوقاف، فانعدم المُجير الناصر والمُحسن الصادق، فتحولت من مجد وكرامة ورعاية صحية ناشطة وساهرة العين مخلصة الضمير، لتتدنّى وتتقوض أركانها الى حدٍّ يندى لها جبين الزمان، لإيواء المجانين وراء القضبان الحديدية، والنساء المصابات بالأمراض عقلياً وجسدياً والمجرمين وذوي العاهات المزمنة العديمة الشفاء، ﴿وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ **سورة البقرة**، الآية (30).

فقصة البيمارستانات في الاسلام بعد شهرتها، كانت غالباً هكذا: حين يكون المحسن المجير، والمؤسس صاحب الفضل باقياً ومَنْ جاؤوا بعده من خلف ذوو فضل، ممن تحلوا بمكارم الأخلاق ورعاية للوقف وللعهود، كانت البيمارستانات في عنفوان ازدهارها، ونضارة شبابها حتى تضاعفت مواردها، وكثر المحسنون اليها المحافظون على أوقافها فآل أمرها الى النجاح والفلاح، مساهمة بأفضل الخدمات الطبية وأجل الأعمال الصحية، وأمجد المآثر العلمية من تعليم وخدمة وعناية ورعاية لدى الجميع ـ الفقراء قبل الأغنياء، رجالاً أو نساء على حد سواء. فلما غاب النصير النزيه، وانعدم المجير الأمين، كَثُرَتْ المحن وازدادت الشدائد وتصدعت الأبنية، وقلّت الموارد وتعثرت المسيرة، وشحت الأرزاق وضاقت أمامها سبل التوفيق والعيش الكريم، وكثر ذوو المطامع الدنيوية الرخيصة، والنفعيون يعيثون فساداً، وهذه «العرائس المزدانة المزينة» باتت عرضة لدمار المخربين وتقلبات الزمان حتى صارت أثراً بعد عين[4].

أما البيمارستانات في أوج مجد عزها، مدينة بعد أخرى، من بغداد وحلب ودمشق والقاهرة ومراكش وغرناطة، الى غَزْنة وخوارزم وبُخارى والرَّيّ وأصفهان وقونية وقيسارية، في كل منها تحت إشراف محسن كريم، أو طبيب نطاسي، أو أمير نبيل أو سلطان عادل كانت رمزاً ومعقلاً لتأكيد الاسهام، على أعلى المستويات، في حفظ الصحة عامة، ودفع الأدواء وسلامة البيئة وفلاحها، ولتكون مركز اشعاع للعلوم الصحية والمعارف الحكمية، بين الأطباء والمتعلمين والمرضى والاساءة وعموم المواطنين، معطية أشهى الثمار وأينع القطاف لقرون عديدة، وليس أصدق من ذلك ما جاء في آية كريمة منقوشة تحت قبة الباب الداخلي لبيمارستان النُّوري الكبير بدمشق، والذي أصبح في زمننا هذا، متحفاً للطب والعلوم على أرفع الرتب، عبرة وذكرى، اذ قال الله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبِعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. **سورة البقرة** آية 262. وقوله تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ **سورة البقرة**: الآية 110.

النماذج الرائدة:

لم يكن هناك بيمارستاناً بالمعنى الحضاري العلمي الصحيح، حتى جاء الاسلام، فقامت واشتهرت هذه المؤسسات،

ومنها نقل واستفاد العالم أجمع. ولكن بدون شك، كانت هناك مقدمات هامة ونماذج بدائية مفيدة، سبقت فمهدت الى تأسيسها ونضوجها وازدهارها في عصر الخلفاء والملوك المسلمين، فكانت طرازاً لها.

ونبدأ القول بأن في الشرق الأدنى قبل ظهور الاسلام وفي الصدر الأول منه كانت هناك مراكز إشعاع مثل بيزنطية (قسطنطينية)، وانطاكية والرُّها ونَصِيبين، وجنديسابور والاسكندرية وغيرها[5]. أما لغتي العلوم والفلسفة الرئيسية فيها، فكانت اليونانية والسريانية حيث تأسست فيها ملاجىء خيرية دينية، ودور ضيافة لايواء المعوزين والمعوقين والغرباء، لتقديم المعالجات والعون والاسعاف للمرضى والمحتاجين ليس الا.

والآن نلتفت إلى ما هو جار في البلدان الاوروبية فنقول، انه منذ زمن الاغريق والرومان وبعدها حتى بداية عصر القرون الوسطى، لاسيما زمن الملك شارلمان حوالى 800 م، وَاصَلَ العاملون المحسنون على تشجيع واقامة ملاجيء ومحميات لمأوى الجنود المحاربين والمتشردين والغرباء، من ناحية، وفتح دور للضيافة ونزل وتكايا للحجاج والمعوقين والعجز والمسافرين من ناحية أخرى، ولكن مثل هذه الملاجيء والدور لايمكن بحال من الأحوال، أن تعتبر بمنزلة مستشفيات بالمعنى الحقيقي العلمي والأكمل[6].

وفي الشرق الأدنى، في أواخر القرن الخامس الميلادي أيضاً، لجأ النسطوريون من أهل الرُّها ونَصِيبين، بسبب اضطهادات دينية، وبعض اليونانيين بعد إغلاق الاكاديمية أثينا (التي أنشأها أفلاطون عام 388 ق.م. حتى أغلقها الامبراطور جوستنيان الأول عام 529 م)، إلى مدينة جنديسابور (في خوزستان بجنوب غرب إيران)[7]، واجتمعت هناك أيضاً أقوام شتى تنطق بالاغريقية أو السريانية أو الفارسية الفهلوية، وكان من بينهم علماء وفلاسفة وأطباء، بجانب الصناع والحرفيين وذوي الخبرات والأعمال، وكان من خلال امتزاج هذه الشعوب، أن برزت حضارات شرقية وغربية متآخية منسجمة. فازدهرت نتيجة لذلك نهضة علمية وعمرانية حضارية، واكبتها دراسات في القوانين والأنظمة الطبية العملية، التي أغنت حقول المعرفة عامة، فأحدثت تطوراً مدهشاً في التخصصات الطبية، سيما عصر كسرى أنو شروان(530 - 579 م) ومَن بعده من ملوك الساسانيين الفرس أعداء البيزنطيين الألداء، فكان منهم أن ناصروا وشجعوا الحرفيين والعلماء والأطباء، لا سيما بين الناطرة (لغتهم الأم السريانية) والعارفين باليونانية، والذين ترجموا كثيراً من الكتب القديمة، فَنَشَطَتْ العلوم الطبية والممارسة العملية بالعناية بالمرضى والمعوزين، بأهداف انسانية وعلمية ودينية جمعت بين الدين والدنيا، فقام نتيجة لذلك بيمارستان جنديسابور والكلية الطبية الملازمة له. ولكن الأطباء السريان، اعتبروا أمراً فاصلاً بين ما هو ديني روحاني متمركز ومتخصص في الأمور التعبدية الزهدية لربح الآخرة، وبين ما هو علماني من أعمال وترتيب واهتمام بالحياة الدنيا فقط. ومن هنا من خلال الشريعة السمحة المسالمة تأتي ميزة البيمارستانات في الاسلام، ومن هنا تأتي المراكز المهنية الصحية لتضيء الطريق، أهدافاً وانتشاراً حتى انه كان بين المدراء المشرفين على هذه الهيئات هنوداً، وصابئة ومسيحيين ويهود، وكانوا كأبناء الأمة الواحدة من دون تفريق بين طائفة وأخرى[8].

أضف الى ذلك ان نموذج جنديسابور الرائد هذا، لم يكن ليأتي من أقاصي المعمور، بل كان منشؤه ومصدره التأثير الاغريقي في بيزنطية وسورية، ثم صار سياسياً وقانونياً تابعاً للحكم الفارسي وبايحائه، ولكن تنظيمه الحقيقي والمباشر فبإيعاز وادارة واشراف سرياني لغة وحضارة ومنهجاً.

وهناك تمرن في ممارسة المهنة الطبية، أو التمريض والعناية بالجرحى ومعالجة الأمراض مثل زينب بني أود طبيبة العيون، والحارث بن كَلَدَة، ممن امتدحه الرسول (صلعم) قائلاً: «ان ابن ثقيف، من أطب العرب في زمنه»، حتى صارت شهرته مضرب الأمثال، وكذلك ابنه النضر ثم ثيادوق وعائلة الحكم وغيرهم[9].

ومع ان العرب قد فتحوا مدينة جنديسابور عنوة، بقيادة أبي موسى الأشعري حوالي 18 هـ، إلّا ان مسيرة الحضارة والعمران فيها استمرت مزدهرة، والبيمارستان سار قدماً في خدمة المرضى وتشجيع أهل العلم والمتعلمين. ومن بينهم من

جاؤوا من الجزيرة العربية وسورية والعراق، وقد دَوَّنت الدساتير الطبية والكتب العلاجية المفيدة نصوصاً تدل على غزارة انتاجهم، وحسن طويتهم، ومواظبتهم على العمل والاستمرار فيه لأكثر من أربعة قرون، حتى بدأ الانحلال، فتقوضت عمران المدينة واندثرت معالمها في القرن السادس الهجري، ولم يبق منها عين ولا أثر[10].

العصرين: النبوي والأموي:

إن العناية بالمرضى والجرحى في الاسلام، دينياً وإنسانياً، كانت ظاهرة لازمة وأكيدة، نراها منذ العهد النبوي في المسجد الشريف بالمدينة المنورة، وفي خيمة رفيدة الأسلمية، التي كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها في خدمة من كان ضعيفاً من المسلمين أو من فيه علّة، حتى إذ أصاب سعداً بن معاذ سهماً، وهو في غزوة وقعة الخندق، قال رسول الله (صلعم)، «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعود عن قريب»، وقد منّ الله عليه وعلى المسلمين آنذاك بالعافية والنجاح[11].

وكذلك أيضاً نسيبة (أمّ عطية) بنت الحارث الانصارية الصحابية، التي احترفت غسل الموتى والختان، وكانت تداوي مرضى المسلمين وتخدم الجرحى في الغزوات. كما قيل أيضاً بأن الحجاج بن يوسف الثقفي، في دولة الأمويين، أجرى الأرزاق على المرضى والمعوزين والمعوقين احتساباً[12].

وبعد أن استقر الوليد بن عبدالملك في ملكه (86 - 96 هـ)، وهو عند أهل الشام «من أفضل خلائفهم»، بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة وغيرها، «ووضع المنار وأعطى الناس» وأحسن للمجذومين، وقال: «لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد (معوق أو مجذوم) خادماً وكل ضرير قائداً»، هذا حسب ما ذكره المؤرخ الطبري وكثير بعده[13].

فنرى إذاً ان الخليفة الوليد بنى الملاجيء للمجذومين وذوي العاهات، لئلا يكونوا عالة على الآخرين في معيشتهم، انما لا ينطبق على موضوع البيمارستان بمعناه المهني العلمي المتكامل، فالاقتباس هذا حاصل من غير مراعاة الدقة المهنية (اذ أن الطبري نفسه لم يكن طبيباً). وبنفس الارتجال أيضاً أشار المقريزي في خططه، مغفلاً نفس الأمر بقوله بأن، «أول من بنى المارستان في الاسلام ودار المرضى، الوليد بن عبدالملك وهو أيضاً أول من عمل دار الضيافة»، وذلك عام ٨٨ هـ، «وجعل في المارستان الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق»، وفي هذا التقرير تصرف غير صحيح، فالمقصود الملاجيء الخيرية ليس الا[14].

وبهذا نرى ان المسلمين اهتموا بالمجذومين وذوي العاهات والأمراض المزمنة، جسدياً وعقلياً، لإيوائهم والقيام بأودهم خير قيام، هذا منذ حوالي 707 م، في حين، في الغرب بقي مثل هؤلاء المرضى في حالة يرثى لها من المضايقة والتعذيب والحرمان حتى حوالي عام 1794 م، حين قام الطبيب الفرنسي فيليب بنيل المشهور بلقب «أبو علم النفس» في العصر الحديث، الذي أمر بفك قيود الأسرى رجالاً ونساء، والمصابين بالأمراض العقلية وأصحاب العاهات المزمنة، فحطم الأغلال القاسية بالرغم من مقاومة الأطباء وذوي الشأن والمجتمع حوله، وعادى المناهضين له، مقدِّماً معاملة إنسانية رفيعة، مع المعالجة الصحيحة والرعاية الجديرة بقيمة الانسان بالحسنى، فاتحاً الباب على مصراعيه لأرقى أنواع العناية المثلى، وفي المعالجة الموضوعية في دور الشفاء المتقدمة[15].

فكل هذه المؤسسات الخيرية الدينية المباركة ونظيرها التي أشرنا اليها في تقريرَي الطبري او المقريزي وغيرهما، [16] ما هي الا مجرد مراكز وتكايا، وملاجيء ودور للضيافة للإيواء وعمل الخير والمعروف، نحو المرضى والمعوزين والمعوقين، مع العناية بالصحة العامة كخدمة جلّى وعميمة النفع، تستحق كل التقدير والرعاية.

ولكن هذا كله لا ينقص من قيمتها شيئاً، سوى انها ليست في نفس مرتبة البيمارستانات، بهيئتها الادارية التنظيمية والتعليمية المهنية، المبنية على الأسس الصحية والحضارية المتكاملة، منهجياً وادارياً وطبّياً علماً وعملاً. فالبيمارستانات الاسلامية اذا هي مقدمة ونموذج للمشافي العصرية المتقدمة، مختلفة بذلك عن الملاجيء الخيرية ودور الضيافة، التي عرفت في الماضي ومعروفة الآن في وقتنا الحاضر بأهدافها الانسانية الرفيعة.

البيمارستان الاول:

ان البداية الفعلية لتأسيس وتكامل البيمارستانات بالمعنى الصحيح، ومن كل الوجوه، تاريخياً وعلمياً وتنظيمياً ومهنياً، تحقق في بغداد، مدينة السلام، عاصمة العباسيين في عهد هارون الرشيد، أحد ألمع خلفاء المسلمين قاطبة (170-193 هـ) ووزيره البرمكي جعفر بن يحيى. كان ذلك حوالي 187 هـ/ 803 م بتصميم عربي إسلامي، وتأثير سرياني بيزنطي متفاعل مع حضارة الهنود والفرس، وقد اجتمعت فيه خصائص متطورة انسانية وعالمية، باعتباره فتح جديد ومتميز في نوعه. وقد قادنا الى ذلك اعتبارات واحداث. فإننا نعلم ان الوزير جعفر كان مريضاً حوالي عام 175 هـ، فقام بمعالجته بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع السرياني النسطوري، وكان البرامكة آنذاك في أوج مجدهم، ولربما بيمارستان الرشيد هذا، هو الذي أنشيء بأمرهم، وليس أنهم أنشأوا بيمارستاناً منفرداً عنه كما يظن. والنص التاريخي الموثق لقيام البيمارستان، هو ما ذكره بعض المؤرخين كابن النديم وابن القفطي وابن ابي اصيبعة، وكان ذلك في زمن الخليفة المأمون عام 215 هـ/830 م، نقلاً عن يوسف بن ابراهيم الذي مدح الصناعة الطبية والأساة الممارسين من الأطباء، وما لهم من باع واهتمام في حفظ الصحة العامة والعناية بالمرضى، وقد تم هذا الحديث في محضر كل من الأطباء جبريل بن بختيشوع (الحفيد، المتوفي عام 213 هـ) وابن عمه ميخائيل، طبيب المأمون، وزميله الشاب آنذاك أبو زكريا يحي بن ماسويه، وغيرهم من الحكماء، الأمر الذي دفع بالخليفة هارون الرشيد بان يعطي أمراً ليوسف بن ابراهيم لبناء بيمارستان في بغداد، بدأ في أول عهده كالطفل في مهده، ولكن سرعان ما اشتد ساعده ونما وترعرع ليكون كامل البنيان معافى. وآل بختيشوع هؤلاء، هم من الرهط الأول من نطاسي الأطباء، وعندهم الاسبقية بخدماتهم الرفيعة في معاهد جنديسابور، مقدمين النصح لأمير المؤمنين هارون الرشيد، بأهمية تأسيس بيمارستان بغداد، ليكون الاول من نوعه في الاسلام وعالمياً، وتعيين أطباء هنود كابن دهن ومنكة وابن دهشتك الذين سبق لهم التمرين في جنديسابور وغيرهم، ممن تقلدوا أمر الادارة والعمل فيه، مما هو جدير بحسن الذكر وخالد الاثر. [16]

وفي تلك الجلسة كان ذكر اسم «طبيب الملك»، الجنديسابوري الاصل، السرياني النسطوري يحي بن ماسويه، الذي خدم كرائد بصناعة الطب الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان مبجلاً حظياً في قصورهم، وهو الذي أسس أول كلية طبية من نوعها في الاسلام، عرف من تلاميذها المشهورين حنين بن اسحق العبادي (194-360 هـ/809-873 م)، الذي لمع نجمه أخيراً في الترجمة والتأليف بكافة العلوم الطبية والصحة العامة. وابن ماسويه الذي تعين ساعورا (مديرا) لبيمارستان بغداد ودبره بجدارة، محافظا على استمرارية خدماته المهنية والعلمية بنجاح[17].

فتحان جديدان في مدينة السلام:

في ذلك العهد، ظهرت في بغداد والري والفسطاط وغيرها من المدن الإسلامية العريقة بيمارستانات مشهورة كمراكز إشعاع، ساهمت في ترقية المهن الصحية، في أعلى المستويات، تعليمياً وتطبيقياً، كبيمارستان المعتضدي ووَقْف سَجَاح أمّ المتوكل، كما نعرف بوجود أطباء أفذاذ عملوا على انجاح الخدمة في البيمارستانات، مثل أبو بكر الرازي: «جالينوس العرب، وطبيب المسلمين غير مدافع»، الذي دبر البيمارستان في بغداد وثم في الرَّيّ بايران مسقط رأسه[18]. وفي مطلع القرن الهجري الرابع المزدهر، دارت أحداث خطيرة كان لها الأثر العميق والبعيد المدى، في تقدّم البيمارستانات وتطور التعليم الطبي في داخلها، ثم خارجياً في حفظ الصحة العامة، ورفع شأن المهن الطبية، بالحثّ على الترخيص للأطباء المستحقين بالممارسة، والاهتمام بالمسجونين لمعالجة الأمراض البدنية والعقلية، والعناية بالريف والقرى، والمحافظة على صحة البيئة.

تروى القصة بالشكل التالي، في شهر محرم عام 306 هـ، وبتوصية من قبل رئيس أطباء بغداد، أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحرَّاني (المتوفي عام 331 هـ) قامت السيدة شغب أمّ الخليفة المقتدر بتأمين البيمارستان الذي حمل اسمها، وكان موقعه في سوق يحيى بن خالد البرمكي، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وذلك بإشراف وتشجيع الكاتب الوزير علي بن

عيسى ابن الجراح (المتوفى عام 334 هـ)، الذي كان مجالساً نصيراً للعلماء والأطباء، سخيّاً في الانفاق للأعمال الخيرية، كثير المعروف في خدمة ديوان البر مشهوداً له بالنزاهة، وقد رصدت السيدة شغب للبيمارستان ستماية دينار راتباً شهرياً، ما عدا الأوقاف والاحسانات الأخرى، للإنفاق على ما يحتاجه من التدفئة والمؤن والدثار وما يصلح ما يلحق المرضى من الضرر.

وبعد شهور قليلة من عام 306هـ، قام ابنها الخليفة المقتدر، وكان كريماً وافر الفهم، بتأسيس بيمارستان آخر في باب الشام، على الضفة الغربية من نهر الفرات، وكان الانفاق عليه شهرياً مائتي دينار، وكان قاضي القضاة بالعاصمة آنذاك، أبو الوفاء بن سعيد بن يحيى كثير العناية بأمور البيمارستان، أما تقليد الادارة فبقيت مرهونة للطبيب سنان بن ثابت نفسه[19].

ومنذ تولى المقتدر الخلافة، كان الطبيب عبدالله بن بختيشوع كاتباً نديماً له، لحق بأبيه جبريل في معرفة العقاقير، فاضلاً متقناً لصناعة الطب جيداً في أعمالها، حسن الدراية لها، فبعد أن قام في خدمة البلاط، لازم البيمارستان المقتدري، مواظباً فيه على التعليم والدرس والممارسة[20].

ولاحقاً من منطلق الاهتمام الخاص بالتعليم الطبي، وأمر وجوب ترخيص من يصلح من الأطباء للممارسة في مهنته، وخدمة المواطنين بحسن الادارة والمعالجات، فإن معاصره رئيس الأطباء سنان بن ثابت بن قرة قد قام بإجراء الامتحان، لمن هم في العاصمة العباسية قاطبة، غاية منح الاجازات للمستحقين للعمل بجدارة، وهذا الاكتتاب يعتبر الأول من نوعه عالمياً، في تاريخ وتطور العلوم الطبية خاصة. لقد حدث هذا في عام 319هـ بتوصية من الخليفة المقتدر ووزيره الجريء ابن الجراح، بسبب غلط جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر الخليفة المحتسب ابراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر الأطباء، من التطبيب والتصرف بالمعالجة، إلاّ من امتحنه الطبيب سنان كاتباً له رقعة (أو رخصة) بخطه وتوقيعه، يسمح له بممارسة المهنة، وما يصلح له من التصرف به من المعالجات والعمل، فبلغ عدد الذين سجلوا لنيل الاجازة على جانبي بغداد، 860 طبيباً ونيف، سوى من استغنى عن مهنته لاشتهاره بالتقدم في الصناعة، ومن كانوا في خدمة الخليفة.

ثم ان سنان أشار أيضاً إلى أمر الاهتمام بمن هم في الحبوس، إذ إنها لا تخلو من كثرة عددهم وجفاء مساكنهم، وما يتعرضون له من العلل والمحن وشظف العيش وهم معوقون بسبب الزمانة من التصرف في منافعهم، ولقاء من يمكن مشاورتهم من الأطباء فيما يعرض لهم، فينبغي التوصية بتعيين أطباء ناصحين يدخلون إليهم باستمرار كل يوم يتفقدون أحوالهم، ويطوفون في غرف السجون، ثم يحمل إليهم من الأدوية والأشربة، ما يعينهم على معالجة أمراضهم والرعاية الصحية، وما يزيل عنهم الضنك والأوجاع فيما يتناولونه من العلاج، والسماح للأهل والمعارف في زيارتهم في أوقات معينة، لتفقد أحوالهم وسلامتهم وتطمينهم بإزاحة الحرمان والوحشة عنهم.

ثم إن الطبيب سنان فكر أيضاً بأمر أهل السواد من أهل القرى والريف، متذكراً بأنه لا يخلو أن يكون منهم المرضى والمحتاجين إلى المواساة والعناية، وليس من متطبب يشرف عليهم، ومن أجل ذلك تقدم إلى الخليفة بواسطة الوزير، موصياً بوجوب إيفاد وإنفاذ متطببين يطوفون في السواد، ويقيمون في كل قرية وضيعة برهة من الوقت حسب اللزوم وما تدعو الحاجة إليه، ومعهم خزائن الأدوية والأشربة لمعالجة من فيه من المرضى، في المكان المعين، بعدها ينتقلون إلى غيره[21].

بيمارستانات زائدة في الفسطاط:

منذ العصور الأولى في الحضارة المصرية القديمة، كان هناك اهتمام بالصناعة الطبية والرعاية الجادة بصحة المرضى، فكان أمحوتب يعتبر مثلاً رمزاً كأبي الطب، مع أنه كان وزيراً مهندساً وعالماً مرموقاً. ثم إن المؤرخ الأغريقي هيرودتس (484-425ق. م) امتدح أطباء مصر وعنايتهم بالصحة العامة في كل التخصصات الطبية. وفي عصر البطالسة 313-30ق.م. ازدهرت حضارة متخصصة في العلوم الصحية في الاسكندرية، لاسيما بين أعضاء الهيئة التدريسية والباحثين في كافة العلوم

والفنون المعروفة آنذاك، في كل من المتحف والمكتبة. أما زمن الرومان والبيزنطيين فقد اشتهرت الكلية الطبية في الترجمات والشروح والمختصرات للكتابات الأبقراطية والجالينوسية، مع تنظيم المسافات التعليمية في المواضيع الطبية، ولكن عبر كل هذه القرون العديدة وحتى انفجار صدر الدولة العباسية، لا نعلم بالبلاد المصرية مطلقاً عن قيام بيمارستان معروف بالمعنى الحقيقي المتقدم. إنما ربما الأول الذي نعرفه، من خلال الوثائق التاريخية فقط، هو بيمارستان المعافر في زقاق القناديل بفسطاط مصر، بناه الفتح بن خاقان وزير المتوكل، توفيا كلاهما معاً في عام 247 هـ[22].

أما المقريزي فيستهل الحديث حول هذه المؤسسات بمصر، بذكر البيمارستان الذي أنشأه الأمير أحمد بن طولون وأكمله حوالى 261هـ/874م، في منطقة القرافة والبركة وجامع ابن طولون (قرب السور والقنطرة)، عرف فيما بعد بالعتيق أو الأعلى، وقد انفق الأمير عليه أموالاً طائلة وأوقف له الأوقاف السخية، وفي بعض نصوص الوقف نجد أن هناك بنداً يستثني المماليك والجنود، وفي ما عدا ذلك جعل الخدمة فيه تبقى موقوفة على عامة الشعب من أغنياء وفقراء، رجال ونساء، كبار وصغار على حد سواء، وقد شمل البيمارستان حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء، مما يدل على رقي هذه المؤسسات والعناية المثلى الموجودة فيها، مع الترتيب الدقيق في أمر إدخال المرضى للمعالجة، ثم خروجهم بعد الشفاء على أحسن أسلوب، في أصول ونظام يتلاءم مع الرعاية الصحية، فمثلاً حين يدخل المريض إلى البيمارستان، ينزع أولاً ثيابه، فتؤخذ وما معه من أمتعة ومال فيحفظ عند أمين مسؤول، ثم يعطى ألبسة خاصة، ويهيأ له سرير في إحدى الأروقة أو القاعات المناسبة لعلته، ثم يحضر الطبيب أو الأطباء المسؤولون عنه لمعالجته، وبواسطة المساعدين يقدمون له ما يحتاج إليه من أدوية وأطعمة، حسب ما يرسمه المعالج ويبقى قيد العناية حتى الشفاء، وبدون مقابل، ثم أنه عند الانصراف يقدم لوداعه غذاء فاخر، ثم تعاد إليه ثيابه وما يملكه ويعود مع أهله إلى بيته آمناً. وقيل أن الأمير المؤسس نفسه كان يتفقد البيمارستان كل يوم جمعة، ليعرف ويطمئن عن أحوال المرضى وكيفية سير العمل، كما وأن المؤسس رسم فيها مكتبة وقاعة للمحاضرة، وبهذه المناسبة نعلم أن الطبيب سعيد بن نوفل كان طبيباً خاصاً في خدمة بلاط الأمير ابن طولون وفي البيمارستان أيضاً[23].

ونعرف أن الطبيب محمد بن عبدون الجبلي العذري، سافر من الأندلس إلى العراق للتمرين والتعرّف على تطور المهن الصحية في الشرق العربي، وزار الفسطاط وأشرف أو دبر بيمارستان ابن طولون هذا، قبل رجوعه إلى العاصمة الأندلسية، ليكون في خدمة بلاط الخليفة هناك قبيل 360هـ، ولا شك أنه بعدها وضع أساساً للبيمارستانات في الأندلس المسلمة. أما في الفسطاط فقد ظهرت بيمارستانات أخرى، استمرت تزدهر حتى الدولة الفاطمية، ولكنها جميعها باتت من جملة ما اندثر[24].

البيمارستان العضدي الكبير:

أسسه في بغداد الملك أبو شجاع فناخسرو عضد الدولة بن ركن الدولة أبي علي الحسن البويهي الديلمي (338-373هـ)، الذي قيل فيه إنه لم يبلغ من بَني بُويه أحد ما بلغه من سعة المملكة والفتوحات، وكان ذلك في زمن المطيع العباسي حتى تنازله عن الخلافة عام 363هـ/974م. وفي عام 351هـ ورد على الملك عضد الدولة هذا في مدينة شيراز، الشاعر أبو الطيب المتنبي فمدحه في قصائد، يقول في إحداها:

وقد رأيتُ الملوك قاطبةً ... وسرْتُ حتى رأيتُ مولاها

وقد مدحه المؤرخون لمشاركته في إحياء العلوم والفنون، وقد اجتهد في عمارة مدينتي شيراز وبغداد، حيث بنى البيمارستان الذي يحمل اسمه على الجانب الغربي من ضفة دجلة. وبعد ثلاث ونصف من السنين أكمله في حوالي عام 372هـ/982م، وغرم عليه أموالاً وفيرة، ويضم البناء قاعات فسيحة حسنة العمارة متخصصة حسب الأمراض والحميات والحاجات العلاجية من جراحية، أو رمدية، أو باطنية أو عقلية، بعضها للرجال والأخرى للنساء منفصلة ومستقلة عن بعضها، يدخلها الماء السلسبيل، وقد عيّن فيه ما يقرب من 24 طبيباً، نعرف البعض منهم ممن كانوا أفاضل يتمتعون بسمعة

طيبة من جرّاحين ومجبّرين وكحّالين وطبائعيين مع القابلات والصيادلة، وأعدّ له ما يقصر الشرح عن وصفه من أنواع الآلات والتجهيزات التي يعزّ وجودها شيئاً كثيراً: كالخوابي والقواصير والصناديق والقدور والبراني الصينية وأنواع العقاقير والأفاويه والطيوب، والأطعمة والأشربة والفرش واللحف والأسرّة، ورتب فيه الفراشين والطباخين والبوابين والحراس، وأحسن أنواع الخدمة إداريا، ومهنياً، وفي دوراتهم بين الأسرّة، يتفقد فيه الأطباء أحوال المرضى، مع وصف شامل وترتيب منسق لما يحتاجون إليه من دواء أو طعام أو عناية، حتى قيل إن بيمارستان العضدي لم يكن له نظير في ذلك الزمن حتى ولا في قصور الملوك[25].

وإذ نحن نتحدث عن هذا البيمارستان، فإننا نخبر عن مؤسسة ممتازة أدّت خدمة مهنية شريفة، قامت بنشاط علمي طبي منقطع النظير، وشملت سِيَر علماء أفذاذ، كابن بختيشوع وابن كشكرايا، وعبدالله بن الطيب وتلميذه المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان البغدادي، وأبي الحسن البصري وعلي بن عيسى الكحّال، وأبي الحسن علي بن ابراهيم بن بكش المكفوف، ورئيس الأطباء هارون بن صاعد الصابي، وأبي سعيد منصور زاهد العلماء، وأبي الحسن علي بن هبة الله بن الحسن العشاب البغدادي المتوفى عام 495هـ. أما في القرن الهجري السادس، فنذكر أبا بكر ابن الفرج عبدالله ابن المارستاني المتوفي عام 599هـ، وشيوخه ومعاصريه أمثال جمال الدين سعد بن أثردي وأبا علي بن أبي البقاء بن أبي الخير بن العطار النيلي، وهو طبيب مشهور وابن طبيب، وأمين الدولة هبة الله ابن التلميذ المتوفي عام 549هـ، الذي انتهت إليه رئاسة الطب بالعاصمة العباسية، والتي ازدانت بهم فخاراً وشموخاً[26]. وفي عهد الخليفة القائم (حوالي عام 462هـ)، وكذلك في زمن الخليفة المستضيء (عام 569هـ)، كان البيمارستان هذا عرضة للإصابة بالغرق لكثير من أبنيته، مما نتج عنه بسبب الطوفان على جانبي دجلة أضراراً خطيرة، ولكن سرعان ما كان هذا الخلل يرسم ويصلح ليعود العمل فيه موفوراً، والخدمات الطبية والتعليمية والعلاجية ميسرة ومنتظمة، حتى أن الرحالة ابن جبير، حين دخل بغداد (عام 580هـ/1184م)، زار البيمارستان العضدي على ضفة النهر، فوجد الأطباء يتفقدون فيه المرضى أسبوعياً، يومي الاثنين والخميس، يطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم تناول ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قوم يعملون على طبخ وتحضير الأدوية والأغذية، أما العمارة، فكانت عبارة عن قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، وكان يجلب إليه ماء الشرب في أقنية من النهر، فإلى داخل البيمارستان[27].

وفي القرن الهجري السابع بدأ العمل في البيمارستان العضدي يتقهقر تدريجياً، ونوره يخمد حتى الأفول فصار أثراً بعد عين، وعلى يدي هولاكو المغولي عام 656هـ/1258م، سقطت عاصمة العباسيين ولحقت بكل مرافق الحياة والعمران فيها عوامل الخراب والدمار، وفي عام 727هـ حين زار الرحالة ابن بطوطة المكان بكى على ذهاب مجد قد زال واندثر[28].

وبالرغم من كل ما حدث، فالبيمارستانات في الإسلام وضعت أساسات راسخة لسد ثغرة تربوية وعلمية هامة، في رفع مستوى العلوم الصحية مهنياً وتعليمياً، وكمقدمة ناجحة لتوطيد عمل المشافي الحديثة. وفي العصر العربي الذهبي، نرى استمراراً للمساهمة القيمة لإنجاح هذه المؤسسات، من قبل نطاسي الأطباء وأعيان العاملين في خدمتها ورعايتها، كما نجد في هذا المعنى، ما ذكره الطبيب علي بن العباس المجوسي الجرجاني المتوفى عام 384هـ/994م بقوله: «وينبغي لطالب هذه الصناعة (الطبية) أن يكون ملازماً للبيمارستان ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع حذاق الأطباء، فإنه إن فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغاً حسناً، (فتنجح) مداواته للمرضى (وبذلك) يثق الناس به، ويميلوا إليه (نائلاً المحبة والكرامة)»[29].

بيمارستان مدينة الشهداء:

من أجمل القصص التي تروى في هذا الباب، تأسيس بيمارستان ميافارقين، مدينة الشهداء، وقاعدة ديار بكر بين الجزيرة والأناضول (بتركيا اليوم) وأذربيجان، وفي هذه المناسبة نجد فيما ذكره المؤرخون وبما معناه، أن الطبيب أبو سعيد

منصور بن عيسى زاهد العلماء، كان الطبيب الخاص للأمير نصير الدولة بن مروان والي ديار بكر أيام الخليفة القائم (422-467هـ)، محسناً إليه محترماً له معتمداً عليه في صناعة الطب وهو الذي بنى البيمارستان هذا.

وسبب ذلك أن ابنة للأمير نصير الدولة كان يحبها كثيراً ويحنو عليها، مرضت مرضاً شديداً، فنذر بإيمانٍ مغلظة متى برئت فإنه سيتصدق بوزنها دراهم. فلما عالجها زاهد العلماء،وعلى يده نالت الشفاء بإذن الله، أشار على الأمير بأن يجعل جملة هذه الدراهم التي يريد أن يتصدق بها، لتكون بدلاً بتكريسها لأجل بناء بيمارستان ينتفع به الناس، ويكون له لذلك أجراً عظيماً وسمعة حسنة وخيراً للمسلمين. فانصاع الأمير للنصح وأنفق أموالاً طائلة لبناء البيمارستان، وقد أوقف له أملاكاً تقوم بكفاية الإنفاق عليه بسعة، وأكمله عام 449هـ، وجعل فيه من الآلات وجميع ما يحتاج إليه شيئاً كثيراً جداً، فجاء لا مزيد عليه من تنظيم وخدمة ورعاية، لاسيما ما كان يدور في مجلس العلم المقرر في البيمارستان هذا من سؤال وجواب، وما يجب على المتعلمين لصناعة الطب تقديمه في قاعة المحاضرات هذه[30].

بيمارستانات حلب:

منذ زمن الأمير سيف الدولة الحمداني، وفي منتصف القرن الهجري الرابع، كانت مدينة حلب الشهباء تفخر كثيراً بالبيمارستان، وما يضمه من نطاسي الأطباء للعناية وشفاء المرضى. وفي عام 440هـ بينما كان الطبيب المختار أبو الحسن ابن بطلان في طريقه إلى مدينة انطاكية، عرّج على حلب للإقامة بها أياماً فأشاد بذكر بيمارستانها، وأنه على صغر حجمه كان جماً جليل الخدمات، وقد تعين موقعه بدار سودون الدوادار في غربي الحلاوية حتى اندثر خبره[31].

على أن من أعظم ملوك الإسلام، الذين أسهموا في تطوير وإنجاح هذه المؤسسات المباركة في سورية، كان الملك العادل محمود نور الدين بن عماد الدين بن زنكي، فقد بنى داخل باب انطاكية بحلب، قرب الجامع الكبير في محلة الجلوم الكبرى بزقاق البرهمية، بيمارستاناً يحمل اسمه، أنشأه حوالي 553هـ، وقد اختار له موقعاً نيّراً شرحاً طيب الهواء حسن العمران، فرشه بالرخام وأدخل فيه الماء السلسبيل إلى جانب بركتين غزيرتي المياه، كما رسم له الأوقاف السخية وعيّن له أفضل أطباء الشهباء آنذاك، كأبي الفضل بن أبي الوقار، والطبيب سكرة الحلبي وابنه عفيف (المتوفى عام 584هـ)، وقد خصص في البناء قاعات للرجال وأخرى للنساء، وقسم آخر للصيف تم سقفه بعد ذلك بسبب الشتاء، وقام بإصلاحه أولاً السلطان صلاح الدين الأيوبي (حوالي 588هـ)، ثم رمّمه الملك العادل (حوالي 610هـ)، وفي أول عهد المماليك (حوالي عام 655هـ) أعيد إصلاحه، واستمر العمل فيه على فترات بين النشاط والخدمة الجادة تحت ادارة خيّرة على يد الحاج محمد البيمارستاني (المتوفى عام 840هـ)، ورئيس الأطباء ناصر الدين السروجي (المتوفى عام 964هـ)، إلى أن انهدم ولم تبق من آثاره سوى بوابته الواسعة مع الكتابة الأصلية، ومصراعين لباب المدخل، مزينة بقطع مربعة من صفائح خشبية مزينة بالنقوش البديعة، وجدارين متداعين. وحدث أنني زرته في خريف 1976، وفي حزيران 1984، فوجدته مهملاً بعض الشيء، ويا حبذا التوصية بالحفاظ عليه بأفضل حال وبواسطة المختصين والخبراء كأثر نادر وهام[32].

وهناك البيمارستان الأرغوني بحلب وهو باق إلى وقتنا الحاضر، وحين زرته شخصياً لدراسة جادة في العامين المذكورين آنفاً، وجدتُ فيه ما أعتبره بحق نموذجاً فريداً من نوعه، ومثالاً حيّاً رائعاً لعظمة الحضارة العربية الاسلامية من الناحية الطبية، وما رأيت فيه من أجود التصاميم لبناء وتنسيق المشافي الحديثة: مداخله، وتنظيم أقسامه، وترتيب غرفه وإيوانه، وبركه، وكواه، مما يفوق حد الوصف والإبداع. لذا فإنني أهيب بالمختصين في وزارتي الصحة والآثار ونقابات المهن الطبية عامة ترميم ما يلزم ترميمه وحفظه كأثر نادر يفتخر به على مدى الأجيال.

ثم إن موقع البيمارستان ليس بعيداً عن القلعة في داخل باب قنسرين، وقد أنشأه وأنفق عليه الأموال الغزيرة، وأوقف له بسخاء الأمير سيف الدين أرغون الكاملي (عام 755هـ)، فاجتهد وأجاد في أمر عمرانه أجراً واحتساباً، واتقن مجالسه

وقاعاته وقواعد أبنيته وحجراته، وجمع له الآلات والتجهيزات وأحضر له المستخدمين العاملين، وأكرم فيه العلماء، والأطباء والمشرفين، وفتح أبوابه للضعفاء بأمراض الجسد، والعلل العقلية، للغرباء والمقيمين، للرجال والنساء، بأحسن عناية وأطيب رعاية حتى قال فيه الشاعر:

قولا لأرغون الذي معروفه ... بالعرف قد أحيا النفوس والأرَجْ
أنزلكَ الرحمن خير منزل ... رحب ورقاك إلى أعلى الدرَجْ
بنيتَ داراً للنجاة وللشفاء ... ليس بها على المريض من حَرَجْ[33]

وهكذا رأينا تطوراً مشجعاً مرموقاً في مدينة الشهباء، أولاً في البيمارستان القديم الذي على الأرجح كان يعرف باسم بني الدقاق في دار سودون الدوادار غربي المدرسة الحلاوية، والذي مع الأسف لا نعرف له أثراً باقياً البتة. وثانياً البيمارستان، النوري والذي كان ـ موقعه كما ذكرنا ـ في باب انطاكية بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى، وثالثهم، الأرغوني وهو الأحدث والذي بقي قائماً حتى يومنا هذا في باب قنسرين، فيه تم ترتيب كل ما يحتاج إليه من أرزاق للمرضى، وملتزمات للمشرفين على الخدمة، وجميع التجهيزات من حجر وأروقة ومجالس لمرضى الجسد وأصحاب الأمراض العقلية أيضا. والتولية كانت لكامل مدينة حلب، وكانت توضع في أروقة البيمارستان الرياحين، ويؤتى بآلات الطرب والمغنين في مناسبات، كما كانت تُتْلَى فيه آيات الذكر الحكيم، لتكون هذه المشاهد المنعشة، والأنغام الشجية سبباً لسلوة النفس وبعث الفرح والبهجة في قلوب المرضى، مما يساعد على تمام العناية بالمعالجة الطبيعية والنفسية، والتي تساعد في تسريع الشفاء، والوصول إلى العافية والقوة جسدياً وروحياً في أقرب الفرص[34].

بيمارستانات دمشق:

من أهم بيمارستانات سورية في العصر العربي الذهبي، ومن أكثر هذه المؤسسات امتداداً وتنظيماً ومجداً واشتهاراً في العالم الاسلامي قاطبة، هو البيمارستان النوري الكبير، الذي قام بتأسيسه الملك العادل نور الدين محمود عماد الدين زنكي، الذي بنى قبله البيمارستان المشهور باسمه في حلب، السابق ذكره، وآخر في مدينة حماة (أكمله عام 570هـ)، والذي ـ في عصرنا هذا ـ قام بترميم بنائه وإصلاحه وتنميقه بالنقوش والزخرفة العربية الاسلامية البديعة، مواطنون وهيئات مسؤولة جادة حكومية ونقابية ومهنية، فأعادوا إليه رونقه وبديع حسن عمارته، وقد أودعت فيه المعارض والرسوم ونفائس الآثار، ليكون متحفاً علمياً ومركزاً ثقافياً حضارياً طبياً يفتخر به، ليس في المنطقة فحسب بل وعالمياً أيضاً.

وكما ذكرنا القصة المعبرة والمؤثرة حول تأسيس بيمارستان «مدينة الشهداء» في الأناضول، نذكر أيضاً قصة إقامة عمارة البيمارستان النوري الكبير هذا، نقلاً عن كتاب **الروضتين** وتتلخص بالقول، بأن أميراً صليبياً من الإفرنج وقع بالأسر في أيدي المسلمين بسورية، فقدّم ملك الصليبيين مالاً جزيلاً مقابل أمر افتداء حياة هذا الأمير، فأطلق سراحه، ولكن ما لبث بعد وصوله لموقعه آمناً، أن توفي بعد ذلك بمدة قصيرة، بيد أن الملك نور الدين استعمل هذا المال للإنفاق على بناء هذا البيمارستان البديع العمران وإنجاحه، وقد رسم له الأوقاف السخية، ليجعله حصناً شامخاً لمداواة الأغنياء والفقراء وجميع السقماء على حد سواء الذين يرجى برؤهم (اكمله عام 569هـ)، وكان قد جمع فيه جملة كبيرة من الكتب الطبية للمراجعة والتعليم والدرس[35].

وقد كان نور الدين ملكاً مهيباً زاهداً كثير الصدقات والإحسان لشعبه، دوّنت له المآثر الجمة والمناقب الفاخرة في النصر والمجاهدة، قام ببناء الجوامع والمدارس ووكل العمل في البيمارستان هذا لأطباء موهوبين أفذاذ، نذكر منهم:

محمد عبيد الله بن المظفر بن عبدالله الباهلي من الحكماء المشهورين والأفاضل في الصناعة الطبية، لحق بأبيه أبي الحكم

في حسن المعالجة، مكرَّماً لدى الملك العادل نور الدين، فلما أنشأ الأخير البيمارستان، جعل أمر الطب إليه فيه وأطلق له جامكية (مُرتَّب) وجراية، فكان يدور على المرضى به ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشرفين والقوام لرعاية السقماء، فكان جميع ما يكتبه للمرضى من المعالجة والتدبير يصفه لهم دون تأخير أو توان في الخدمة، وبعد الفراغ من ذلك كان يتوجه إلى البيمارستان الذي في قلعة دمشق العظيمة، ويداوم ليتفقد المرضى من أعيان الدولة والعساكر، «يأتي هناك ويجلس في الإيوان الكبير المفروش كله يواصل العمل، ثم يأتيه الأطباء والمتمرنون في الصناعة يقعدون بين يديه»، فتجري مباحث طبية على أحدث الطرق التعليمية، والنظر في الدساتير الطبية مقدار ثلاث ساعات ثم يعود راجعاً إلى منزله[36].

والشيخ مهذب الدين علي بن أبي عبدالله عيسى بن النقاش البغدادي المولد، تلميذ الشيخ الأجلّ أمين الدولة هبة الله ابن التلميذ الذي لازمه مدة. نشأ مهذب الدين أديباً عالماً بالعربية والفارسية، ثم آثر التخصص في الصناعة الطبية، وقد دخل دمشق يعلم الطب فصار له مجلس عام للمشتغلين عليه وكأنه كليّة طبية متخصصة، وخدم في البيمارستان النوري الكبير سنيناً عديدة، ثم خدم السلطان صلاح الدين الأيوبي حتى وفاته بدمشق عام 574هـ[37].

والحكيم موفق الدين أبو النصر أسعد ابن المِطْران، وقد تتلمذ على ابن النقاش الآنف ذكره، فصار أمير أهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها وأكثرهم تحصيلاً لأصولها وجملها، وله تصانيف تدل على فضله ونبله، وكان جميل الصورة جيد المداواة لطيف المداراة. مولده ومنشأه بدمشق، وكان أبوه أيضاً طبيباً متقدماً جوّالاً في البلاد لطلب الفضيلة، وخدم موفق الدين السلطان صلاح الدين وحظي في أيامه، وكان رفيع المنزلة عنده عظيم الجاه، وجمع من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد، ما عدا ما استنسخه هو من الكتب بيده، وهي في غاية حسن الخط والصحة والإعراب وكان يعمل في البيمارستان النوري يعالج المرضى المقيمين به، له نكت ومِلَح وأخبار عديدة ومفيدة في الجراحة والمعالجة، رويت عنه ومنسوبة إليه، ما عدا التعاليق والمصنفات الكثيرة التي تركها للخلف[38].

وفي ذلك الوقت خدم في البيمارستان النوري أطباء ناجحون، مثل مهذب الدين ابن الحاجب، والحكيم شمس الدين محمد ابن اللبودي، وقد درّس صناعة الطب حتى وفاته عام 621هـ، ومؤيد الدين محمد بن عبدالكريم الحارثي المهندس والطبيب في آن واحد، وكانت له جامكية لطبه في البيمارستان النوري سنيناً كثيراً حتى وفاته عام 599هـ بدمشق، وموفق الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار السلمي، وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب بجانب البيمارستان حتى وفاته بعلة القولنج عام 604هـ، وأخيه الحكيم الأجل سعد الدين بن عبدالعزيز السلَمي ومولده بدمشق عام 583هـ، كان مواظباً على الاشتغال ملازماً للعمل في البيمارستان وفي القلعة حتى وفاته عام 635 هـ[39].

ونذكر ثلاثة أطباء خدموا في الطب والبيمارستان النوري بامتياز، الأب هو الشيخ رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة الرحبي، من الأكابر في صناعة الطب، وله القدم والاشتهار والذكر الحسن عند الخواص والعوام، كبير النفس عالي الهمة شديد الاجتهاد في مداواة المرض، لاسيما في صناعة الكحل التي كانت أغلب عليه وقد عُرف بها، وكان مولده بجزيرة ابن عمر ونشأ وأقام بنصيبين والرحبة فسمي بالرحبي، ودرس في بغداد والقاهرة، واشتغل على ابن جميع المصري وابن النقاش، واستقر بدمشق وبقي ملازماً للقلعة والبيمارستان زمن صلاح الدين، وله راتب شهري ثلاثين ديناراً، واستمر بعد ذلك في التدريس أيضاً، «وجميع من قرأ عليه ولازمه سعدوا وانتفع الناس بهم وتميزوا واشتهروا بصناعة الطب، رافضاً من لا يجد نفسه أهلاً لها، معطياً الصناعة حقها من الاحترام والتقدير لشرف مقامها»، ومن تلاميذه أيضاً الذين انتفعوا به مؤرخ الطب المشهور ابن أبي أصيبعة، وقد درس عليه الجزء العملي من كتب الرازي، وكان هذا دأبه حتى وفاته عام 631هـ، وقد خلف ولدين، الأكبر منهما هو شرف الدين أبو الحسن الذي ولد بدمشق عام 583هـ، «وقد سلك حذو أبيه واقتفى ما كان يقتفيه وهو أشبه به خَلْقاً وخُلْقا وطرائق، قارىء للكتب مشتغلاً على أبيه تشرئب نفسه إلى طلب الفضائل والعلوم، وخدم في البيمارستان حتى وفاته عام 667هـ بعلّة ذات الجنب»، وقد أنشد لنفسه شعراً موافقاً لما حكم به يقول:

سهام المنايا في الورى ليس تمنعُ فكل يوم وإن عاش مصرعُ
وكل وان طال المدى سوف ينتهي إلى قعر لحْدٍ في ثرى منه يودعُ

وأما أخيه الأصغر فهو جمال الدين عثمان، الذي اشتغل بصناعة الطب على والده وعلى غيره، فأتقنها أيما اتقان، وكان حسن المعالجة جيد المداواة، وخدم في البيمارستان النوري، ولكنه هاجر إلى القاهرة فمرض وهناك توفي عام 658هـ[40].

ولكن رئاسة الطب انتهت آنذاك بالشيخ مهذب الدين أبو محمد عبدالرحيم بن علي الدخوار، الذي لم يكن في اجتهاده من يجاريه ولا في علمه من يماثله، اتعب نفسه في الاشتغال وكدّ خاطره في تحصيل العلم، حتى فاق بدمشق أهل زمانه، وحظي عند العامة والخاصة حتى وفاته. وكان أبوه علي بن حامد كحّالاً مشهوراً، وكذلك كان أخوه حامداً، فكان في المهنة أباً عن جد، وفي مبدأ اشتغاله كان يكحّل، ملازماً للشيخ رضي الدين الرحبي، وموفق الدين ابن المطران السابق ذكرهما، ثم خدم في البيمارستان الكبير يعالج المرضى فيه، وكان راتبه يسيراً ترفعاً ولعدم حاجته لذلك، غاية الاحتساب والذكر الحسن بخدمة المحتاجين منذ زمن السلطان الرفيع الشأن صلاح الدين. وفي عام 610هـ مرض الملك العادل الأيوبي مرضاً صعباً فتولى علاجه إلى أن برىء مما كان به، فأكرمه كثيراً بأسنى الهدايا، وبعدها قام بعلاج وشفاء ابنه الملك العادل، وأخيراً عام 626هـ الملك الأشرف الحفيد أيضاً.

ثم إن الشيخ مهذب الدين الدخوار أسّس في مطلع عام 622هـ، مدرسة أو كليّة طبية خاصة جعلها وقفاً في داره عند الصاغة العتيقة بدمشق، وأوقف لها ضياعاً وعدة أماكن للإنفاق عليها في زمنه وبعده، وهكذا قام بتدريس صناعة الطب فاجتمع إليه خلق كبير من أعيان الممارسين وطالبي الصناعة يقرأون عليه ابتداءً من كتب جالينوس وترجمة حنين العبادي في ذكر الأمراض ومداواتها والأصول الطبية، وهو معجب بهذا حريص على شرحها وتصانيف من تبعه من المحدثين، وكان الدخوار طلق اللسان حسن التأدية للمعاني جيد البحث، وكان من جملة تلاميذه، الذين لازموه وتدربوا معه في وقت معالجته للمرضى في البيمارستان النوري الكبير مؤرخ الطب ابن ابي أصيبعة، وكان ذلك أيام شبابه ومباشرة انخراطه في الدراسة الطبية، وكان في ذلك الوقت أيضاً معه في البيمارستان، الحكيم عمران بن صدقة وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، وما كان يجري بينهما وأطباء آخرين من الكلام والمناظرة في الأمراض حول الأساليب والملح والغرائب والطرق «والتقصي في المعالجة والاقدام بصفات الأدوية التي تبرىء في أسرع وقت (والتي) يحصل من تأثيرها شيء كأنه سحر». فكانت تدور إذاً، المشاورات والتناوبات والاستشارات الجادة والمفيدة بين الأطباء والصيادلة، وما يجرون من الحوار في التعليم ومن تجارب سريرية، وما يشاهدون من تشخيص الحالات المرضية في البيمارستان، مع الاستدلالات والمعاينات الفاحصة والدقيقة، كما هو الوضع بصورة بدائية تقريباً في المشافي العصرية في الدول الراقية. «ولم يجتمع في البيمارستان (النوري الكبير) منذ بُني وإلى ما بعده من الزمان من مشايخ الأطباء، كما اجتمع فيه في ذلك الوقت.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

وكان الشيخ مهذب الدين رحمه الله إذا تفرّغ من البيمارستان، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة (تؤازره مكتبات غنية فيقرأ تلك المصنفات) في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه، ويضعها دائماً إلى جانبه، مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة والنبات (لشمول الاستفادة مهنياً ولغوياً)، فإذا أذِنَ للجماعة (من المشتغلين معه من أطباء وتلاميذ متميزين منهم) يدخلون إليه ويقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه ويفهمه إياه بقدر طاقته (وبالتفصيل والشرح)، فكان إذا فرغت الجماعة من القراءة، يعود هو إلى نفسه فيأكل شيئاً ثم يشرع بقية نهاره في الحفظ والدرس». وكان هذا دأبه جزءاً من الليل أيضاً، كغيره من نطاسي الأطباء المتميزين

في ذلك العصر المزدهر، منذ توليه رئاسة الطب حتى وفاته عام 628هـ/1231م[41].

أمّا كلية الدخوارية الطبية هذه، فقد استمرت كمركز اشعاع حضاري وطبي بنجاح منقطع النظير، تحت إشراف الحكيم شرف الدين علي بن يوسف بن الرحبي السابق ذكره، وبعده أشرف عليها الطبيب بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك. «وقد جمع الله فيه من العلم الغزير والذكاء المفرط والمروّة الكثيرة ما تعجز الألسن عن وصفه، قرأ صناعة الطب على شيخنا الحكيم مهذب الدين (الدخوار السابق ذكره)»، وقد بلغ الغاية في صناعة الطب علماً وعملاً»، «وله همة عالية في الاشتغال ونفس جامعة لمحاسن الخلال، وكان ملازماً (للشيخ الدخوار) مواظباً على القراءة والدرس»، حتى تولى الرئاسة على جميع الأطباء والكحّالين والجراحين عام 635هـ، «فجدد من محاسن الطب ما دُرِس، وأعاد من الفضائل ما دُثر... ولم يزل مجتهداً حتى اشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير فأضافها إليه وجعلها من جملته، وكبر بها قاعات كانت صغيرة للمرضى، وبناها أحسن البناء وجعل الماء فيها جارياً... وخدم (ملوك الأيوبيين وأهل دمشق ومَنْ أمّها) ولازم التردد إلى القلعة والبيمارستان، دائم التزايد في العلم». أهدى نسخة من كتابه، **مفرح النفس**، في شرح وعلاج الأدوية القلبية، إلى ابن أبي أصيبعة، فكتب هذا إليه رسالة شكر وتحية وتقدير مع أبيات شعرية منها مادحاً:

تكاد لنور بدر الدين تخفى طلعة الشمسِ
خبير بالتداوي عن يقين ليس عن حدسِ
وقد أهدى إلى قلبي كتاب مفرح النفسِ
وقد قابلت ما يحويه بالتقبيل والدرسِ[42]

وأخيراً نذكر الكحّال قاسم بن خليفة الخزرجي (ولد بالقاهرة 575، وتوفي بدمشق 646هـ)، وهو والد مؤرخ الطب الحكيم ابن أبي أصيبعة، وهناك عمه رشيد الدين علي بن خليفة الخزرجي (ولد بحلب عام 579، وتوفي بدمشق عام 616هـ)، وكلاهما تربيا وترعرعا بالقاهرة، إذ إن الجد دخلها عندما فتحها الملك الناصر صلاح الدين، وكان آنذاك في خدمته وخدمة أولاده، «فقصد إلى تعليمهما صناعة الطب لمعرفته بشرفها واحتياج الناس طراً إليها، وان صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها وواجباتها وآدابها، يكون مبجلاً حظياً في الدنيا وله الأجر والاحتساب في الآخرة». فالأب اشتغل بصناعة طب العيون على شيوخ مشهورين، يعملون في البيمارستان الذي كان في السقطين بأسفل القاهرة، فاتقن علمها وباشر أعمالها. أما العَمّ، فاتقن صناعة الطب في أسرع وقت ممكن، حتى أنه صار يباحث أعيان الأطباء ويحاورهم، ولازم مشاهدة المرضى بالبيمارستان ومزاولة الجراحة ومعرفة الأمراض وما يصف الأطباء من التشخيص والمعالجة على أحسن وجه.

ولما قدم الجد راجعاً إلى دمشق، مسقط رأسه (عام 597هـ)، استمر ولداه معه في معالجة المرضى والتزيد من صناعة الطب والكحالة، وحضرا مجلس الشيخ شرف الدين ابن الرحبي السابق ذكره، وغيره من العلماء يباحثان ويناقشان، وباشرا العمل في البيمارستان النوري الكبير، لاسيما العمّ، الذي لمع نجمه وعلا مركزه حتى استدعاه (عام 605هـ) الملك المعظم عيسى الأيوبي وسمع كلامه وأعجب بنبوغه وحكمته. وفي عام 609هـ وكان خادم للملك العادل أصيب بمرض عضال في عينيه، فداواه والد ابن أبي أصيبعة حتى برىء تماماً، فصار حظياً عند الملك العادل وجميع أولاده، وارتفع شأنه، كما بقي متردداً أيضاً إلى البيمارستان والقلعة، والناس يقصدونه من كل ناحية حتى وفاته عام 646هـ في أيام الملك الناصر يوسف بن محمد صاحب دمشق. أما العم رشيد الدين فقد تولى الطب (عام 615هـ) في بيمارستان دمشق النوري الكبير، وفي آخر صغير ايضاً اسّسه الملك العادل نور الدين بن زنكي، فكان يتردد إليهما وإلى القلعة للتدريس والتعليم والإشراف على المرضى، وقد قرر له الملك العادل جامكية وجراية، كما أطلقت له أيضاً ست الشام زمرد خاتون أخت الملك، جامكية في الطب، فكان يتردد إلى دارها ومدرستها للقيام بالتدريس وبالرعاية الصحية والمعالجة، بجانب التأليف والخدمة المستمرة الممتازة حتى وفاته ولم يبلغ بعد 37 عاماً من العمر[43].

رأينا في هذه العجالة أهمية البيمارستان النوري وأعيان الأطباء الذين ساهموا بانجاحه في أفضل الخدمات الصحية وفي المجتمع، والأصول التعليمية التي كانت تجري فيه، والعلاقة بين الممارسين والمدارس الطبية الناهضة، وطرق الحوار البناء، وأنواع الكتب المصنفة والمترجمة والأساليب المتبعة، وكان المدير المسؤول على البيمارستان النوري حوالي 800هـ يلقب بشهاب الدين. وقد قيل في البيمارستان انه لم تنطفىء فيه النار ولم يغلق به باب لاستقبال المرضى والأهالي لقرون عديدة، وسبق أنه عام 580هـ حين دخل ابن جبير مدينة دمشق وشاهد فراديسها، وجمال عمرانها، وجد فيها بيمارستانين: واحد قديم يقع غربي الجامع الأموي الكبير في باب البريد لمعالجة الأمراض العقلية ولجميع العلل، فكان الاحتفاء به والرعاية فيه أقل، ولعله أنشىء بعد القرن الثالث الهجري، ولكن يظن بأن الذي رممه واعتنى به وأنفق عليه هو الملك العادل محمود نور الدين بن زنكي، وأنه حوالي 597هـ خدم فيه بجدارة، الطبيب رشيد الدين عم ابن أبي أصيبعة السابق ذكره.

أما الأهم قدراً ومشاركة بين هذه الهيئات، والأكمل عمارة وادارة، والأحفل خدماً ونفعاً، فهو البيمارستان النوري الكبير الجديد، وقد اعتبره ابن جبير في حينه من مفاخر الإسلام رونقاً وأبهة ونجاحاً، بيمارستاناً لم يكن في الدنيا له نظير آنذاك كما كان الأمر كذلك بعده أيضاً لقرون، وذكر أن الجراية فيه كانت لكل يوم خمسة عشر ديناراً، وكان له قوّامون مشرفون يحملون بأيديهم اللوائح المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها من أدوية وأغذية، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، يتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من طعام وشراب وعقار حسبما يليق بكل إنسان[44].

وفي عام 652هـ، أسس الأمير أبو الحسن سيف الدين القيمري ابن أبي الفوارس، بيمارستانا آخر في عمارة رائعة البناء والنقوش، فيه الحجرات الرحبة والأبواب المتسعة، كان موقعه في سفح قاسيون، الصالحية بدمشق، وقد أوقف عليه الأوقاف السخية، منها طاحونة في باب توما وحوانيت وممتلكات من الأراضي، وأغدق عليه كل ما يحتاج إليه من مؤونة، من أطعمة وأشربة ومعاجين، مع تجهيزات وخدمات طبية مضمونة ورعاية للنساء والرجال، ويظن أن الطبيب الجراح ورائد علم الصحة العامة، أمين الدولة أبو الفرج بن موفق الدين ابن القُفّ الكركي (630-685هـ/1233-1286م) كان يتردد إليه ويخدم فيه المرضى والجرحى، وقد استمرت خدمة هذا البيمارستان بين نجاح مضطرد وبين إعاقة وضعف، حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري، بلمعان نجم حسن باشا بن عبدالله الأمين الكبير المعروف بشور بزة حسن، أحد صدور دمشق وأعيانها الذين كان يرجع إليهم في المهمات ويعول عليهم في الأمور، وكان كامل العقل مشهوداً له بفضل التدبير وحسن النية، بالإضافة إلى اهتمامه بإكرام العلماء والفقهاء، وقد تقلبت به الدنيا نعيمها وبؤسها، حتى ثَبَتَ مركزه وعلا شأنه ومرتبته وبلغ من العز والجاه مبلغاً ليس وراءه غاية، وجمع أملاك وعقارات كثيرة مع مساعدة الآخرين في قضاء مهامهم وحل مشاكلهم، وكان يحنو على الأيتام، وولي وقف البيمارستان النوري فأقام شعائره بعد أن كانت اضمحلت، وعمّر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لا يزيد عليه حتى وفاته عام 1027هـ، وفيه يقول نجم الدين الغزي راثياً في قصيدة منها:

أما نَظَرْتَ إلى شور بزهم حسن ... وكان كالسبع أدهتهم أراعيبُه

له محاسن لا تحصى لكثرتها ... فطالما هَطَلَتْ خيراً شآبيبُه[45]

بيمارستانات القاهرة:

نعود الآن لذكر ازدهار العمران والحضارة في العاصمة المصرية أيام الفاطميين منذ زمن المعز والعزيز، فنقول إنه بالنسبة للعناية والتطوير في أمر البيمارستانات والمجتمع بشكل إجمالي، نجد بأن الحالة أقل نمواً واضطراداً في التطور البيمارستاني عما كانت عليه في العراق وإيران، وبعدها في سورية وتونس وحتى المغرب الأقصى. ولا شك أنه كان لهذا التأخر والإحجام أسباباً، منها التعصب الذميم، والرياء الظاهر الذي تمثل بتصرفات بعض المسؤولين في الدولة، القائمين بتنظيم سياستها على أعلى المستويات والمراتب، من حيث التخطيط الجاد لإنشاط وتجميع هذه المهن بشكل إيجابي وصحيح، وليس

الغرض من ذلك أو الغاية الحصول على الشهرة والجاه، كما نجد في مثل «الوزير الأجل» يعقوب بن كلّس المتوفي حوالي 381هـ، وهو في الأصل يهودي من أهل العراق، توصل إلى السلطة في العاصمة الفاطمية بالدهاء والمكر، حتى صار الوزير المكرم المسموع له لدى الجميع، مع أن أهدافه البعيدة كانت نفعية ومادية غاشمة، فلم يعطِ للبلد النجاح المرجو لها في الحقول الطبية.

إلاّ أنه حين دخل الملك العظيم صلاح الدين الأيوبي إلى القاهرة فاتحاً (حوالي عام 567هـ)، عاد الانتعاش والنجاح ثانية من خلال نهضة طبية عارمة من جميع جوانبها، فكثر الأطباء ولمعت نجوم أعيانها ونطاسيها كما في دمشق، حسبما شرحنا كذلك هنا أيضاً، فأغنوا الثروة الطبية العلمية والتقنية، وأحيوا تراثها بتصانيفهم البديعة ومآثرهم الجمة، في ممارسة المهن الصحية بكل فروعها وتخصصاتها، وأصول وأساليب التعليم فيها، وتقدمه وانتشاره في المجتمع الاسلامي. وبسبب الحاجة الملحة، نتيجة الاهتمام والعناية الكبيرين برفع مستوى الصحة العامة، قام السلطان صلاح الدين الأيوبي في العاصمة المصرية (عام 572هـ/1176م) بتأسيس البيمارستان الصلاحي أو الناصري تخليداً لذكراه، وكان في الأصل قصراً للفاطميين، وفيه قاعات واسعة وحجرات نزهة، وحمامات ومطابخ، وأوقف عليه ضياعاً وأملاكاً، واستخدم أطباء وكحّالين وجرّاحين ومشرفين وخداماً ليجد فيه المرضى رفقاً ونفعاً[46].

وبعد اكمال ونجاح هذا البيمارستان بنحو سبعة أعوام، زاره الرحالة ابن جبير فرآه كشاهد عيان وأثنى عليه ومدحه بقوله: «من مفاخر هذا السلطان (صلاح الدين)، البيمارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً، أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً، وعيّن قيّماً من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف انواعها، (كما أنه جهّز ورتب واضعاً) في مقاصير ذلك القصر (المنيف) أسرَّة يتخذها المرضى مضاجع (لهم مع توفير) كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيّم (المسؤول) خَدَمَةٌ يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرةً وعشيةً (في رعاية صحية ممتازة)، فيقابَلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم».

«وبإزاء هذا الموضع، موضعٌ مقتطعٌ للنساء المرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها، وبذلك أعد العدة لعلل البدن الجسدية مقابل سقماء الأمراض العقلية، ولكل قاعات خاصة حسب الحاجة والمتطلبات لحفظ الصحة وسلامة النازلين والزوار. «والسلطان يتطلع في هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكّد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد». ويثبت ابن جبير أن هناك بيمارستاناً آخراً بمصر، على مثل ذلك الرسم بعينه من حيث الترتيب وحسن الرعاية، ولعلّه الذي أنشأه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، والمنسوب إليه في الفسطاط قرب المسجد الكبير، وهو الأنيق في عمارته والواسع في بيانه[47].

وفي هذا الزمن ظهر أطباء أفاضل خدموا المهنة الطبية أفضل خدمة، أولهم الشيخ السديد شرف الدين أبو المنصور عبدالله بن علي الشيخ السديد حاملاً لقب أبيه، وبه عرف. وكان تلميذاً للشيخ موفق الدين عدنان بن العين زربي المتوفى عام 548هـ، وحظي في أيام الخلفاء الفاطميين، ولما انتقلت السلطة إلى أيدي الأيوبيين أكرموه بالجامكية السنية والهبات المتواترة، وتعيّن رئيساً على سائر المتطببين إلى حين وفاته عام 592هـ[48].

ثم الشيخ الطبيب هبة الله بن زيد بن حسن بن افرائيم ابن جميع، وكان معاصراً للشيخ السديد وتلميذاً لإبن العين زربي، الذي لزمه مدة، وخدم الملك الناصر صلاح الدين، وكان رفيع المنزلة عنده عالي القدر يعتمد عليه في صناعة الطب، وركب له الترياق الكبير الفاروق، وكان له مجلس عام للذين يشتغلون عليه في دراسة العلوم الطبية، وله مؤلفات جيدة كثيرة الفوائد منتخبة العلاج، مثل **كتاب الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد**، في أربع مقالات، **والتصريح بالمكنون في تنقيح القانون**، لإبن سينا، ولسنا نعلم فيما إذا كان له علاقة بالبيمارستان الصلاحي بالقاهرة أم لا. ولكننا نعلم أن أبا المنى

ابراهيم بن الرئيس موسى بن ميمون المشهور في الطب كان في خدمة الملك الكامل، كثير التردد على البيمارستان الناصري ويعالج المرضى فيه، وقد اجتمع به الطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة (حوالي عام 631هـ) بالقاهرة، وكلاهما مارسا التطبيب في البيمارستان بامتياز[49].

وأيضاً الشيخ سديد الدين أبو الفضل داود بن أبي البيان المولود بالقاهرة (عام 556هـ)، وكان محققاً للصناعة الطبية، متقناً لها متميزاً في علمها وعملها، خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ومعرفة مقاديرها وأوزانها، وقد امتدحه ابن أبي اصيبعة أثناء عمله هناك، وشهد بحسن إدارته وهو يعالج المرضى في البيمارستان الناصري في نهاية الجودة وحسن التأليف وقدرة الممارسة مما يعجز عنه الوصف، حتى إنه كان يرسل إليه من بهم أمراض مستعصية وقليلة الحدوث، فكان يملي صفات أدوية مركبة بحسب الحاجة، من أقراص وسفوفات وأشربة، وقد جمعها في كتابه **الأقراباذين** (كدستور للأدوية) فتداولها الأطباء والصيادلة في الدكاكين والبيمارستانات ليس بمصر فقط بل وفي سورية والعراق وغيرها[50].

وأخيراً، وفي هذا المجال بالذات، نذكر القاضي الحكيم نفيس الدين أبو القاسم هبة الله ابن الزبير الكولي وأصله من بلاد الهند، وهو ينسب من جهة أمه إلى الشاعر ابن الزبير القائل:

يا ربع أين ترى الأحبة يمموا هل أنجدوا من بعدنا أو اتهموا

ومولده حوالي 556هـ، ودرس الطب في القاهرة على أئمة الأطباء، وتميز بصناعة الكحل ومزاولة الجراحة، وولاه الملك الكامل رياسة الطب بالديار المصرية، وكان يتردد ممارساً لطب العيون في البيمارستان الناصري حتى وفاته عام 636هـ[51].

البيمارستان المنصوري:

إن أعظم البيمارستانات في البلاد المصرية حتى نهاية القرن الثامن عشر، ومن أهمها في البلدان الإسلامية قاطبة لأكثر من ثلاثة قرون، كان البيمارستان الذي أسسه الملك سيف الدين المنصور قلاوون الصالحي الألفي (678-689/1279-1290م) من المماليك البحريين، وكان البناء في الأصل قصراً فاطمياً يقع بين القصرين: الكبير والشرقي الذي بناه القائد جوهر للخليفة المعز (عام 360هـ)، والصغير الغربي بناه العزيز بعد ذلك، وكان قاعة رائعة كبيرة متكاملة العمران للسيدة ست الملك ابنة العزيز، وأخت الحاكم بأمر الله (توفيت عام 425هـ) وكانت لها ثروة طائلة، وقد اشتراها الأمير فخر الدين جهاركس (ومعناه أربعة أنفس) بن عبد الله الناصري (المتوفي عام 608هـ) ثم عز الدين موسك الصلاحي من كبار الدولة الأيوبية، وبعدها صارت للملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل، فاستقر بها هو وذريته، وكان يقال لها «الدار القطبية» تخليداً لذكراه، فأخذها مع ما احتوته من ذخائر جليلة الملك قلاوون من مؤنسة خاتون أخت قطب الدين وابنة الملك العادل، وعوضها عنها بقصر الزمرد برحبة باب العيد، بالإضافة لمال كثير قدمه لها من خزانة الدولة بسخاء.

وكان المشرف على العمارة وأعمال الترميم والإصلاح آنذاك، الأمير علم الدين سنجر الشجاعي مدبر المملكة، فانجز هذا العمل العظيم بهمة كبيرة واجتهاد لا مثيل له، حتى قبل أكمله مع القبة والمدرسة في أقل من سنة واحدة (عام 684هـ/1285م)، وكانت مساحة الدار كلها حوالي عشرة آلاف وستماية ذراعاً، فأبقى القاعة على حالها، ورتبها وقسمها إلى أربعة إيوانات، وبكل إيوان (أو ليوان، قاعة داخلية مسقوفة أو مقنطرة) شاذوران وبدور، قاعتها فسقية يصير إليها الماء من الشاذورانات. واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر في أساس المدرسة المنصورية، فوجد حق أشنان من نحاس، ووجد رفيقه قمقماً نحاسياً مختوماً برصاص، فاحضر ذلك إلى الشجاعي فإذا في الحق فصوص ماس وياقوت وبلخش، ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار، ووجد في القمقم ذهبا يقدر بمال جزيل، فرفعه إلى السلطان[52].

وكان سبب بناء البيمارستان، ان الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزو الصليبيين في أيام الظاهر بيبرس عام 675هـ، أصابه بدمشق قولنج موجع، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت إليه من البيمارستان النوري الكبير، وكان بعد سنين لما أحيل زمام

السلطة إليه، أخذ بالتفكير ثم بالتصميم، لإقامة عمارة أو مؤسسة نظير ذلك بالقاهرة، فوقع الاختيار على «الدار القطبية» في هذا المركز بالذات فاشتراها وعوض أهلها عنها كما سلف ذكره. «فلما نجزت العمارة، وقف عليها الملك المنصور جملة من الأوقاف والأملاك بديار مصر وغيرها في زمنه ولمن يأتي بعده، ما يقرب من ألف درهم في كل سنة»، ورتب الإنفاق اللازم للبيمارستان والقبة والمدرسة ومكتب للأيتام، وأمام حفل التكريس للإفتتاح، أخذ بيده قدحاً من النبيذ وشرب نخبه قائلاً: «قد وقفت هذا على مثلي وممن دوني، وجعلته وقفاً على الملك والمملوك، والجندي والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكور والإناث، ورتب فيه العقاقير، والأطباء، وسائر ما يحتاج إليه ممن به مرض من الأمراض»، وجعل السلطان فيه فرّاشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وقرر لهم المعاليم ونَصَبَ أحسن الأسرة لهم من لازم الفراش، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميّات وما أشبه ذلك، وأفرد قاعة للمصابين بالرمد وأمراض العيون، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، بالإضافة إلى قاعة للنساء مستقلة، وأخيراً مكاناً خاصاً للمبرودين في قسمين، الأول للرجال والثاني للنساء، ومد أقنية المياه تجري في كل أقسام البناء، وخصص مكاناً لطبخ الأطعمة والأدوية والأشربة، ومكاناً لتحضير الربوب والمعاجين والشيافات والسفوفات والأكحال والمراهم وغيرها، ومخازن للحبوب والمؤن على اختلافها، والأدوية والحشائش الطبية بكل أنواعها، وخَصَّص دكّة يجلس فيها رئيس الأطباء لإلقاء المحاضرات والدروس على مسمع الممارسين وطلبة الصناعة الطبية، وباباً مفتوحاً لاستقبال المصابين بعلل مختلفة، جعله سبيلاً لكل من يسجل إسمه للدخول فيه، من غني أو فقير بدون تحديد لزمن الإقامة حتى يتم الشفاء، وعين القوامين والأمناء والموظفين والمدراء المباشرين للعمل فيه، والخدمة والمشرفين وخمسين مقرئاً وإماماً يتناوبون على تجويد القرآن بأعذب الألحان، وكان تمام نص كتاب الوقف فيه (عام 680هـ)، وتحقق في قرابة أربع سنين منذ تاريخ توقيع استهلال العمل (أي كماله نهائياً في مطلع 683هـ) وكان الطبيب الجراح مهذب الدين ابن أبي حليقة آنذاك مديراً مباشراً له[53]. فلما تولى الأمير جمال الدين آقوش نائب الكَرَك ليكون ناظراً للبيمارستان، أضاف إليه قاعة أخرى من حجارة منحوتة، لتظهر كأنها جديدة مع تجديد طراز النقوش وعمارة القبة والمدرسة من الخارج كما من الداخل، ونصب خيمة في حرمه حوالي مائة ذراعاً طولاً، وأنشأ سبيل ماء ليتسنى للناس أن تشرب منه بدل حوض قديم، وقد شيّد ذلك كله من ماله الخاص، مع المحافظة على سلامة البيئة وحفظ الصحة العامة لرفاهية المواطنين.

أما في الممارسة اليومية في البيمارستان، فكان كل نزيل يجد المكان نظيفاً مكنوساً، والثياب تُغسل جيداً، والحمّام والتخوت والفرش والطراريح والمخدات واللحف والملاءات تعطى لكل مريض في القاعة المختصة بعلته، وكانت فيه أماكن لتخزين العقاقير وحفظها حتى الاستعمال، فالشراب مثلاً كان يعد بالقناطير، والأدوية بترتيب المباشرين والصيادلة الأمناء، ومن المرافق والأدوية ما لا يحصى ذكره، «مآثر ليس لها نظير في الدنيا» ويعجز الواصف عن وصف محاسنها. أما العمارة فلها مباشرون ينفردون بها، من ابتياع الأصناف وترميم الأوقاف، وتحويل الحسنات إلى الصندوق، وصرف الرواتب لأرباب الأجر مياومة أو شهرياً أو سنوياً. وقد حوى البيمارستان هذا مكتبة وقاعات للمحاضرات، وأماكن لسماع ألحان موسيقية شجية، أو الإصغاء إلى قصص القصاصين، وتجويد الآذان، ومخازن ودكاكين الصيادلة، وما تحتويه من نباتات طبية، وأدوية وأشربة ومعاجين، ومطابخ لإعداد غذاء النازلين فيه، مع العناية بنظافة المرضى، والمأكل والملبس، والنوم على أسرّة مريحة، حيث كانت الخدمة غالباً لعشرات السنين تسمو وتصلح، ولكن أحياناً تضعف وتتدنى حتى القرون الحديثة. وحين زُرْتُ هذه العمارة الفنية القديمة العهود، الرفيعة الجوانب في عامي 1964 وعام 1976، وجدت المكان في حالة يرثى لها من الإهمال والخذلان، وكان لم يبق منه سوى آثار باقية تحت إشراف وزارة الآثار العامة بالديار المصرية[54].

خاتمة القول: سردنا في هذه العجالة قليلاً من كثير، حول تطور ونجاح البيمارستانات الاسلامية من أواخر القرن الثاني حتى الثامن للهجرة، وقد عددنا بعض الأمثلة القليلة وإلاّ فالوصف يطول، فالبيمارستانات انتشرت على طول البلاد

الاسلامية، من وراء النهر وتخوم سمرقند وبخارى وخوارزم وما حولها شرقاً إلى مصر غرباً، وذكر المؤرخون أنه كان في مدينة غزنة (في أفغانستان اليوم) بيمارستاناً زمن سلطنة الغزنويين، حيث عاش ومارس الطبيب الفاضل أبو حامد أحمد بن محمد النهشعي، تلميذ وصديق ابي الريحان البيروني، حيث قاما بتنسيق وتعريف وتصنيف مفردات الأدوية المتنوعة من شتى المصادر، أثناء جمع المعلومات اللازمة لإصدار **كتاب الصيدنة في الطب**، الذي يعتبر من أحسن الكتب في العصر الوسيط في بابه، والنهشعي كان مديراً مسؤولاً في هذا البيمارستان النائي[55].

وفي قيسارية الأناضول، وايدين ايقونية وبورصة وغيرها، قامت نهضة عارمة لإنشاء هذه الهيئات وترويجها، لخدمة المرضى والتعليم الصحي والممارسة الناجحة[56].

ثم ننتقل إلى المغرب العربي الكبير، حيث قامت مراكز إشعاع أيضاً، كالدمنة في القيروان. كما قامت في سوسة وصفاقس وتونس وغيرها من المدن هيئات ناجحة للتعليم والشفاء. وفي مدينة فاس بالمغرب، نجد بيمارستان سيدي فرج قرب سوق العطارين الذي، وإن كان أهم خدماته مساعدة مرضى الأمراض العقلية، لكنه كان في الوقت نفسه ملجأ لمأوى الفقراء والمرض المحتاجين، حتى سمي المكان بسيدي فرج لأن النازلين فيه يجدون ما يفرج كربهم ويشفي أمراضهم. وكانت هناك هيئات خيرية أخرى في سلا قرب رباط الفتح. وقد قيل إن البيمارستان المعروف باسم امير المؤمنين المنصور المؤمني ملك الموحدين في مراكش، لم يكن مثله في الأناقة والعمران في عموم البلاد المغربية، ويحتوي هذا البيمارستان على الساحات الفسيحة، والنقوش البديعة، والزخارف الاسلامية المحكمة البناء المتقنة الصنع، في أحسن وأنقى المواضع هواءً وانشراحاً، تحيطه البساتين الغناءة لغرس الأشجار والرياحين والنباتات الطبية لاستعمالها في مخازن الصيدلة، وقد مدّت إليه المياه الغزيرة، وبنيت البرك الرخامية الجميلة، والقاعات الشاملة النفيسة الفرش من صوف وكتان وحرير بما يزيد عن الوصف، وكانت النفقة 30 ديناراً يومياً، لتوفير ما يلزم من أدوية وأغذية، وفي دكان الصيدلة كانت تحضر الأشربة والأدهان والأكحال والمعاجين، كما كانت تفصل ثياب للمرضى، وبعد النقاهة والبرء يخرج الانسان مع هدية وإكرام. وقيل إن أمير المؤمنين المنصور كان يعود المرضى كل يوم جمعة ويتعرف على أحوالهم عن كثب، فعل ذلك حتى وفاته عام 595هـ، وكان أمين البيمارستان المشرف عليه آنذاك، الطبيب ابراهيم الداني يساعده ولداه وهما يعملان معه[57].

وأخيراً نعرج إلى «الفردوس المفقود» فنذكر آخر ما نذكر بيمارستان غرناطة. وقد حاولت عامي 1964 وعام 1971 أن أتعرف بالتقريب أو بدقة على الموضع الذي كان فيه الموقع الأساسي، فلم أفلح، وقيل إنه كان في منطقة نزهة كثيرة الانشراح والهواء النقي، تتوفر فيه المياه والنافورات والساحات العريضة، بما يقرب في التشبيه من قصر الأمير أبي عبدالله محمد بن يوسف من بني نصر، وكان قد أكمل البيمارستان حوالي 768هـ، وهو يعتبر الأهم والأشهر في الأندلس الإسلامية، «فكان حسنة وبركة في تلك التخوم»، ومع أنه لم يبلغ في الاتساع مبلغ بيمارستان المنصوري بالقاهرة، إلّا أنه في بساطته، وحسن ذوقه وانسجامه وأناقته في تفاصيل البناء، وجمال القاعات والأروقة. لا سيما الداخلية، صار ذخرة للسلف ومركز إشعاع دام حتى سقوط غرناطة[58].

وهنا مسك الختام، في قصة إن دلّت على شيء فإنها تدل على نجاح واشتهار وأبهة وعظمة البيمارستانات الاسلامية، وتطورها المذهل والمنقطع النظير في حقب طويلة من الزمان، إلى حد لم يسبقها غيرها من الحضارات الانسانية. ومفاد هذه القصة، ان المؤرخ الظاهري كان يمتدح البيمارستان النوري الكبير بطريقة مؤثرة ومخلصة، ليعبر عن روعة هذه الهيئات على الصورة التالية (وببعض التصرف) فقال:

دخلت دمشق حوالي عام 831هـ، يصحبني صديق من فارس من أهل الفضل والرفق والحشمة، كان قاصداً الحج في تلك السنة، وحدث أنه زار البيمارستان النوري الأنيق، ونظر فيما حوله وشهد بعض ما فيه من الأطعمة والأشربة وعديد التحف واللطائف، فتمارض ثلاثة أيام ليرى ما يكون. فكان رئيس أطباء البيمارستان يتردد إليه ليجس نبضه، ويفحص بوله

ويعلم حاله، ليهتدي على التشخيص ووصف ما يناسبه من علاج، وفي كل ذلك يقدم إليه باستمرار من أطايب الحلوى والفواكه والأشربة حتى الكفاية. ثم بعد ثلاثة أيام كتب له رقعة بما معناه، إن الضيف لا يقيم أكثر من ثلاثة أيام، فلذلك سمحنا لك الآن بالخروج آمناً غانماً[59].

ففي غاية اللباقة والحذق مع الذوق السليم صرف المدير هذا الزائر الكريم وقد رأى بأم عينيه حسن العناية. وهكذا كانت الحالة ولعدة قرون، من جودة الخدمة وصدق الرعاية بالبيمارستانات والتقدم في المهنة الطبية والصحية بكل فروعها، فكانت إحدى مفاخر الحضارة الاسلامية الرائعة وما يتبع ذلك من رفع المستوى الصحي بدنياً ونفسياً، ونجاح صحة البيئة، مقدمة للمواطنين الخدمات العلاجية والتعليمية على أحسن نظم، لتكون مثالاً حياً ومقدمة معبرة بكل وضوح لقيام المشافي العصرية المتطورة.

وفي ختام ما بدأناه من شرح وتبيان حول مجالات وأهداف البيمارستانات الاسلامية وتطورها المدهش، نقتبس ما قاله الشاعر الأديب معين الدين ابن تولو بامتداحه للملك المنصور قلاوون حول أسباب وأغراض وأساليب البيمارستان المنصوري الكبير هذا، وما كان لها من موضع التنفيذ، في قصيدة رائعة يقول في مطلعها:

أنشأتَ مدرسةً ومارستاناً لتصحح الأبدان والأديانا

فجمع من خلال هذه المآثر الحضارية المباركة والأعمال الطبية والمهنية في خدمات المشافي والمعاهد العلمية الثقافية منطلقات للخير والحسنى لخدمة الانسان.

المراجع والهوامش

(1) أبو نصر اسماعيل بن حمّاد الجوهري، **الصحاح في اللغة**، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، القاهرة، 1956، الجزء الخامس، ص 130، وفي كتابة هذه المقالة اعتمدت على طبعة بيروت دار العلم للملايين، طبعة ثانية، 1979، الجزء الثالث، ص 978، وأبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، 1968، الجزء السادس: 217.

(2) أحمد عيسى، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، بيروت، دار الرائد العربي طبعة ثانية، 1981، ص ص 8-14، وأيضاً:
Amin A. Khairallath, *Outline of Arabic Contributions to Medicine*, Beirut, American Press, 1946, pp. 60-69.

(3) **المرجع نفسه**، وأيضاً:
Aydin Sayili, «The emergence of the prototype of the modern hospital in medival Islam,» *History and Philosophy of Science*, Hakim Said editor, Karachi, Pakistan, Hamdard Foundation, 1979, pt., pp. 139-140.

(4) سامي حداد، «المستشفيات عند العرب»، **مجلة الايمان**، بيروت، العدد الثاني (1938)، ص ص 18-20، ثم إن موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، القاهرة، طبعاً بولاق، 1299هـ/1882م. المجلد الأول ص ص 27، 34 يفيد بأنه كانت لأبقراط عناية بالغة في نفع المرضى وفي مداواتهم وهو أول من أوجد البيمارستانات في بستان قرب داره وجعل فيه قومة يشرفون على النزلاء وأسماه بلغة الإغريق أخسندوكين (Xenodokeion (plu. Xenodochia وأن روفس الكبير الطبيب الأفسي صنف مقالة في الأعمال التي تعمل في البيمارستان.

(5) Steven Runciman, *Byzantine Civilization*, 3rd impression, London, 1948, pp. 108, 237-8, and 291-3: and E.E. Hume, «Medical works of the Knight Hospitallers of St. John of Jerusalem». *Bulletin of the Institute of the History of Medicine*, The John Hopkins University, vol. 6 (1938), pp. 399-401.

(6) George E. Gash and John Todd, «The Origin of Hospitals», *Science, Medicine and History*, E. Ashworth Underwood editor, London, 1953, vol. 1, pp. 122-25; and P. Jung, «Das Infirmarium im Bauriss des Klosters von St. Gallem,» *Gesnerus*, vol. 6 (1949), pp. 3.11-15.
ويشمل ذكر خطة لبناء البيمارستان- الملجأ ودار الضيافة وبيت الطبيب المشرف والمطبخ وقاعات المرضى وبستان للنباتات الطبية المحيط بالنزل حوالي 820م. أما زمن الإغريق والرومان فعرفت هياكل اسقلبيوس باسم Asklepieon of Nosokomeion ويوحنا فم الذهب، وجيروم،

والملك سيليوس البيزنطي في قيصرية وكبدوكية وغيرهم في بلدان غرب أوروبا أنشأوا دوراً للضيافة، وملاجيء ونزل ومشافي للجنود المحاربين، وللعجزة والمعوزين والغرباء والمرضى، والحجاج كما عثر على أدوات طبية وجراحية وعرفت Valetudinaria, leprosia and iatreia (asylums, hopices and Hôtel-Dieu).

(7) I. A. Brady, «School of Medicine at Jundî Shāpūr, Birthplace of Arabic Medicine,» *Transactions and Studies*, Philadelphia. pa., College of Physicians, Vol. 23 (1955), and *The New Encyclopaedia of Britannica*, University of Chicago, vol. 7 (1974), pp. 357, 446.

(8) A.O. Whippole, «The Medical School and Hospital of Gondi-Shapur and its Influence of Arabic Medicine,» *Proceedings of the Charaka Club*, vol. 9 (1938), pp. 95-6; and George Sarton *Introduction to the History of Science*, reprinted by R.E.Kreiger, Huntington, New York, 1975, pp.381-2, 415-19; and 435-7.

(9) أبو داود سليمان بن حسان ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، معهد الآثار الفرنسي، 1955، ص 54، وجمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي يوسف القفطي، **تاريخ الحكماء**، تحقيق جوليوس ليبرت، ليبزغ، 1903، ص ص 161-3، وابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد الأول، ص ص 110-123.

(10) مدينة جنديسابور اسسها الملك الساساني شابور بن اردشير بإعطاء المعنى بأنها «خير من انطاكية» حين انتصر على البيزنطيين هناك وقد أسكنها سبي الروم والنسطوريين السريان وأقوام غيرهم أيضاً. ذكرها شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، مطبعة دار صادر بدون تاريخ، المجلد الثاني، ص ص 170-1.

(11) أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، تهذيب سيرة **ابن هشام**، **السيرة النبوية في تخريج الدلالات السمعية**، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت مطبعة المجمع العلمي العربي الاسلامي، 1374هـ، ص ص 228-9. وأيضاً محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، **أيام العرب في الإسلام**، بيروت، دار الفكر، الطبعة الرابعة، 1973، ص ص 72-75.

(12) عمر رضا كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والمسلمين**، دمشق، المكتبة الهاشمية، طبعة ثانية، 1959، المجلد الخامس، ص 171، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، بيروت، مؤسسة الرسالة، طبعة ثانية، 1982، ص ص 278-8, 318.

(13) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، طبعة ثانية، 1967، الجزء السادس، ص ص 495-6 (في حوادث عام 96هـ)، وأبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة، الطبعة الأميرية، المجلد الأول، 1913، ص 431.

(14) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، القاهرة، طبعة بولاق، 1270هـ، المجلد الثاني، ص 405.

(15) George A. Bender, *Great Moments in Medicine*, Detroit, Northwood Institute Press, 1966, pp. 68-75, and 162-8.

(16) David M. Dunlop, «Al- Bīmāristān, «*The Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Leiden, E. J. Brill, 1960, p. vol. 1, pp. 1222-3, and Fuat Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Leiden, E.J. Brill, Vol. 3 (1970), pp. 226-7.

أبو الفرج محمد بن إسحق ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1348هـ/1929م ص ص 426-7, 435، وابن القفطي **مرجع سابق** ص ص 383-4؛ وابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد الأول، ص ص 173-5.

(17) Fuat Sezgin, *Op. Cit.*, Vol. 3, 1970, pp. 231-236.

وابن جلجل، **مرجع سابق**، ص ص 65-66، وابن النديم، **الفهرست**، ص ص 425-6، وابن القفطي، **مرجع سابق**، 380-90، وابن أبي أصيبعة **مرجع سابق**، 175-83.

(18) Lucien Leclerc, *Histoire de la mèdecine arabe*, Paris vol. 1, 1876, pp. 337-50;

وابن جلجل، **مرجع سابق**، 77-8، ابن القفطي، **مرجع سابق**، 271-77، وابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، 309-12، وأبو القاسم بن أحمد ابن القاضي صاعد الأندلس الطليطلي، **طبقات الأمم**، القاهرة، مطبعة السعادة، بدون تاريخ، ص 88، والبرت زكي اسكندر، «**تحقيق في سن الرازي عند اشتغاله بالطب**»، **المشرق**، مجلد 54 (1960)، ص ص 168-77، وأبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1970، المجلد 5:157.

(19) ابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، **المجلد الأول ص ص** 220-25، وابن القفطي **مرجع سابق**، 190-94 .

(20) هو عبيد الله بن بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع ذكره ابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد الأول، 144-5: وابن القفطي، **مرجع سابق**، ص 104 ولويس شيخو، **علماء النصرانية في الإسلام**، جونية، لبنان، المكتبة البوليسية، 1983 ص 129. *The Encyclopaedia of Islam, op. cit. 1:1223-4*

(21) ابن القفطي، مرجع سابق، 190-49، وابن أبي أصيبعة، مرجع سابق المجلد الأول 220-25، وابن خلكان، مرجع سابق، المجلد الثالث: ص 77.

(22) معافر بن يعضد بن مرة بن أود هو وزير المتوكل وقد بنى البيمارستان بالفسطاط بمصر قرب مصلى خولان بن عمرو بن فاتك، وقد باد أثره، انظر احمد عيسى، مرجع سابق، ص ص 66-67، والمقريزي، مرجع سابق، المجلد الثاني: 406.

(23) المرجع السابق، مجلد 2: ص 405، وجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبدالله ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة، دار الكتب، الجزء الثالث: ص 12 حيث ذكر انفاق ستين الف ديناراً بواسطة ابن طولون على بيمارستانه، أما سعيد بن نوفل (والأرجح توفيل المتوفى حوالي 269هـ/882م)، ابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، المجلد الثاني: ص 84-85، وصارم الدين ابراهيم بن محمد ابن دقماق، **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، بيروت، دار الآفاق الجديدة لجنة احياء التراث، تصويراً عن طبعة القاهرة، بولاق 1309هـ، القسم الأول ص ص 99, 109، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، **الولاة والقضاة**، القاهرة، دار المعرفة، 1958، ص ص 55, 256.

(24) يبدو أن العذري الجبلي (311 إلى بعيد 360هـ)، قد ذكره ابن جلجل، مرجع سابق، ص 115، وابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، 46:2، وصاعد، مرجع سابق، ص 81. Sezgin, *Op. cit.*, 3:303.

(25) تقي الدين ابي المعالي محمد بن رافع السلامي، **الوفيات تحقيق صالح مهدي عباس**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982، المجلد الأول، 406، وشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **تاريخ الاسلام**، القاهرة، القدسي، عام 372هـ، ابن خلكان، مرجع سابق، المجلد الرابع: 51-55؛ وأبو الصلاح عبدالحي ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، القاهرة، 1350هـ، الجزء 3 :3133-4 والجزء 4 :228.

(26) أبو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير، **البداية والنهاية في التاريخ**، القاهرة، مطبعة السعادة، 1358هـ الجزء الحادي عشر ص 399، ابن القفطي، مرجع سابق، ص ص 235-6, 340-42, 403، وابن أبي أصيبعة، مرجع سابق المجلد الأول ص ص 241, 259-62, 298, 303-5, 204, 237، شيخو، مرجع سابق، ص ص 57-60, 83.

(27) ابن تغري بردي، مرجع سابق، الجزء السادس: ص 172 حول زلزلة عظيمة هدمت بين ما هدمت البيمارستان النوري الكبير بدمشق، وسبق ذكر وصف لذلك البيمارستان في رحلة ابن جبير، مرجع سابق، طبعة بيروت، 1981، ص ص 180-183.

(28) ابو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، القاهرة، الأميرية، 1871، الجزء الأول، ص 134، وابن خلكان، مرجع سابق، 174:2، ثم انظر:
Sami Hamarneh, «Development of Hospitals in Islam,» *Journal of the History of Medicine and Allied Science,* vol. 17 (1962), pp. 369-71.

(29) أبو الحسن علي بن العباس المجوسي، **كامل الصناعة الطبية**، القاهرة، مطبعة بولاق، 1294هـ/1877م، المجلد الأول: ص 11، وابن خلكان، مرجع سابق، المجلد الرابع ص 51-54 والخامس: ص 119.

(30) ابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، المجلد 253:1، شيخو، مرجع سابق، ص 163، Lecterc, *op. cit.*, 1:497-8.

(31) ابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، المجلد 241:1-3، ابن القفطي، مرجع سابق، ص ص 293-5.

(32) المرجع السابق، المجلد 163:2-4، محمد راغب طباخ، **اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء**، بيروت، المطبعة الأميركية، 1880، المجلد 77:2.

(33) بشوفه الجرماني، **تحفة الأنبياء في تاريخ حلب الشهباء**، بيروت، المطبعة الأمريكية، 1880 ص 140، القلقشندي، مرجع سابق، المجلد 220, 117:4، وأحمد عيسى، مرجع سابق، ص ص 224-7.

(34) كرد علي، مرجع سابق، المجلد 16:6، ابن كثير، مرجع سابق، عام 755هـ، الجزء 278:12، والجزء 258:14.

(35) محمد الأمين بن فضل الله المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ، المجلد 24:2-27، ابن ابي أصيبعة، مرجع سابق، المجلد 115:2, 260، المقريزي، مرجع سابق، المجلد 408:2، وتغري بردى، مرجع سابق، المجلد 174:6. Lecterc, *Op. cit*, 1:568.

(36) ابن خلكان، مرجع سابق، المجلد 184:5-5، ابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، المجلد 115:2.

(37) القفطي، مرجع سابق، ص ص 340-42، وابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، المجلد 259:1-62, 276 والمجلد: 162:2-4.

(38) المرجع السابق، المجلد 175:2-192، شيخو، مرجع سابق، ص ص 84-86، وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، دمشق، مطبعة الترقي، المجلد الثاني، 1958 ص 245، وخير الدين الزركلي، **الاعلام**، الطبعة الثالثة، بيروت 1969، المجلد 1 :293

(39) ابن ابي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد 2:184-201.

Carl Brockelmann, *Gechichte der arabischen Litteratur*, Leiden, Brill, Vol. 1, 1943, pp. 62-43, and *Supplement*, Vol. 1, 1937, pp. 891-6.

(40) **المرجع السابق**، ملحق، مجلد 1:896، وأيضاً ابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، 2:239-46.

(41) **المرجع السابق**، المجلد 239-251، ابن كثير، **مرجع سابق**، الجزء الثاني عشر: 278.

(42) ابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، 2:259-62.

(43) **المرجع السابق**، المجلد 2:247-59، وابن خلكان، **مرجع سابق**، المجلد 2:242-4، 5:185.

(44) رحلة ابن جبير، **مرجع سابق**، 230-1، وتقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع السلامي، **الوفيات**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982، المجلد 1:450 والمجلد 1:131-2، 146-7.

(45) **محمد الأمين بن فضل الله المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، بيروت، دار صادر، المجلد الثاني ص ص 24-27.

(46) ابن تغري بردي، **مرجع سابق**، الجزء الرابع، ص 101، والجزء السادس، ص 79.

(47) رحلة ابن جبير، **مرجع سابق**، ص ص 230-1، والقلقشندي، **مرجع سابق**، المجلد الثالث، ص 369، أحمد عيسى، **مرجع سابق**، ص ص 76-78.

(48) ابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد 2:109-112.

(49) **المرجع السابق**، المجلد 2:112-115.

Brockelmann, *Op. Cit.*, Vol. 1, p. 643; and Sami Hamarneh, *Catalogue of Arabic Manuscripts on Medicine and Pharmacy at the British Libraty*, Cairo University d'Égypte, 1975, pp. 146-49.

(50) ابن أبي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد 2:117-8، **وفهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الطب والصيدلة**، دمشق، مجمع اللغة العربية، 1969، ص ص 469-70.

(51) ابن ابي أصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد 2:118-9.

(52) **المرجع السابق**، المجلد 2:12، محمد بن الياس المصري الحنفي الشهير بإبن اياس، **بدائع الزهور ووقائع الدهور**، القاهرة، المجلد الأول، 1335هـ، ص 116و Hamarneh, *Op. cit., Vol. 17 (1962), pp. 374-77*.

(53) المقريزي، **مرجع سابق**، المجلد 2:405-8، أحمد عيسى، **مرجع سابق**، 83-92، 112-127، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم المصري ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الأميركية، المجلد الثامن، ص ص 9-22.

(54) **المرجع السابق**، المجلد 8:22-27، السلامي، **مرجع سابق**، المجلد الأول: 233-4، 229، 360، 473 والمجلد 2:312 ابن دقماق، **مرجع سابق**، الجزء 4:110، وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد ابراهيم، القاهرة، الياس الحلبي، الجزء الثاني، 1968 ص ص 270.

(55) أبو الريحان محمد بن احمد البيروني، **الصيدنة في الطب**، تحقيق الحكيم محمد سعيد، كراتشي، باكستان، مؤسسة همدرد، 1973، المجلد الأول ص ص 1-16.

(56) ابن ابي اصيبعة، **مرجع سابق**، المجلد الثاني، ص 79، واحمد عيسى **مرجع سابق**، ص ص 269-277.

(57) **المرجع السابق**، ص ص 279-286، **سلوة الأنفس**، المجلد الثاني، ص 276. عبدالواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص اخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963.

(58) الوزير لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، القاهرة، البابي الحلبي، 1319هـ، المجلد الثاني ص 29.

(59) كرد علي، **مرجع سابق**، الجزء 6:157. عاش الخليل بن شاهين الظاهري (813-872هـ/1410-1467م) زمن السلطان برسباي وقد عمل في السكة والنقود ثم تولى القضاء في ملطية والشام ومن تصانيفه زبدة كشف الممالك.

(60) الشاعر الأديب عثمان بن سعيد بن عبدالرحمن بن أحمد بن تولو الفهري المصري حوالي 685هـ، انظر تغري بردي، **مرجع سابق**، الجزء 7:325-326.